

الموجة والرحيل

مختارات قصصية

محمد علي الشويهدى

وزارة الثقافة



• هيئة التحرير •

رئيس التحرير

محمد بربرى

مدير التحرير

أماني الجندي

سكرتير التحرير

أحمد بكر

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

مسلمة
أهاف عربية

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
محمد عبد الحافظ ناصفرئيس الإدارة المركزية
للتشئون الثقافية

محمد أبو المجد

مدير عام النشر

إبتهال العسلى

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

• الموجة والرحيل

• محمد على الشويهدى

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 2015م

• تصميم الغلاف: أحمد اللباد

• المراجعة اللغوية: ياسمين مجدى

• رقم الإيداع: ٢٠١٥ / ٩١١٢

• التقييم الدولى: 978-977-92-057-0

• المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى : ١٦ شارع أمين

سسمى - قصر العينى

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت ، 27947891 (داخلى ، 180)

• الطباعة والتنفيذ :

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : 23904096

obeikandi.com

الموجة والرحيل

obeikandi.com

أحزان اليوم الواحد

حدوات الخيل تدق الطرق المعبدة، سائقو عربات (الكارو) يطرقعون السباط في الأجواء، محركات السيارات المنطلقة في جنون تحدث ضجيجاً نصف مقبول، وحيات الصباح يتبادلها الرجال الذاهبون إلى أعمالهم بأصوات عالية، وباعة (السفنز) والبول ينادون على بضاعتهم بأصوات تكاد تتوسل المشتريين.

الساعة كانت السابعة صباحاً، وبنغازي تننفس الصباح في تلذذ كسول، والحياة تبدو مبهجة داعية للعمل، ووجوه الرجال يكسوها التفاؤل المفتعل الذي يراد به الاستبشار بأحداث سعيدة في يوم جديد .

حليمة في فراشها تغط في نوم عميق، وإخواتها الصغار يتحركون في مرافدهم وكأنهم يطردون آخر ما علق بجفونهم من نوم، وباب الغرفة الموصل يُدفع بعنف، والحاجة تندفع إلى وسط الغرفة بثوبها الواسع الفضفاض الطويل، الصغار ينهضون جملة ويقعدون في مضاجعهم يتمطون، الأم تصرخ بصوتها العجوز فينفذ إلى أعماق حليمة التي تكاد تنتهي من حلمها السابع:

- (حليمة.. حليمة.. انهضى أيتها الكسولة البائرة.. انهضى حتى لا تحرقك الشمس)..

وتفتح حليمة عينيها على يوم جديد، ويفتر ثغرها عن ابتسامة تتوسل بها أمها أن كفاهها ما سمعت، وتموت الابتسامة على شفثيها الشابتين، وتنزع الغطاء عن جسدها وتطرق بعينيها إلى الأرض متحاشية نظرات أمها:

- حتى في كبري لا أرى إلا التعب.. حتى في كبري لا أجد من يريحني..
ليتني ما شقيت من أجلكم.. انهضى.. خركي..

وتدخل أصوات الصغار في ضجة بريئة:

- الإفطار يا أمي..

وأستدارت الأم، ومضت من دون كلمة، وجرت حليمة جسدها المنهك في إعياء إلى حيث تعلق رداءها، ولفت جسدها الفاره به وأمتطت (شيشبها) إلى المطبخ، وظلال واحد وعشرين عاماً من الشقاء حول بينها وبين أية بارقة أمل في لحظة استرخاء.

- إيه.. إيه.. القهوة.. اتسمعونني أم لا ؟

كان أخوها محمود الذي يكبرها بعام واحد، وكان يعينها، وكانت تحمل له من الحب قدرًا كبيراً رغم أنه لم يحدث أن أسمعها في حياته كلمة حانية واحدة، وابتسمت لكلماته التي تطرق أذنيها كل صباح، ولكنها عادت فاكتأبت، وخرج الصوت من أعماقها كسيراً:

- حاضر.. حاضر يا محمود.. لحظة.. لحظة واحدة.

وحاولت أن تقول أى شيء آخر لتشغله بكلماتها عن ردّ تدرك مضمونه، ولكنها لم تجد ما تقوله وتوقعت أن يقول أية كلمة غاضبة تعلن عن سخطه وتبرمه، وغير أن الصمت خيم من جديد، وانتبهت إلى القهوة التي تكاد تفيض، فرفعت الإناء عن اللهب وصبت شيئاً منه في فنجان كانت أعدته، وأمسكت بالفنجان من عروته واستدارت في طريقها إلى محمود واصطدمت عيناها بعينيه، واصطدمت يدها المسككة بالفنجان بصدرة - وغاص قلبها - واندلقت القهوة على قميص محمود وسرواله، وجفّ ريقها وتملكها خوف من الجهول.

الصغار في الشارع، وأصواتهم المتنازعة حمل الألفاظ البذيئة إلى دواخل البيوت، وبائع الأدوات المنزلية والعجوز يحمل على ظهره كيساً كبيراً معبأً بالأكواب والحلل والملاعق والسكاكين، وصوته العجوز ينادى على بضاعته الرخيصة في وهن، وزغرودة تنطلق من أحد البيوت معلنة عن نجاح الابنة في امتحان الإعدادية، وحدوات الخيل تدقّ الطريق المعبّده في أوقات متباعدة، ومحركات السيارات المتمهّلة تحدث ضجيجاً مقبولاً.

كانت الساعة العاشرة، وحليمة تنشر بيديها الواهنتين، الغسيل على الحبل الطويل الذي يشطر سماء الحوش إلى نصفين، وثلاث جارات يقعدن على الحصير إلى جانب الحاجّة يحتسين الشاي الأخضر "ويشرحن" ابنة ناظر المدرسة التي ترافق أباهما إلى دور الخيالة، ويترجمن

على أيام الحياء والأدب التي ذهبت ولن تعود.

- خذي هذه الصحون إلى المطبخ.. وافطري إذا شئت.. وحاولي أن تنتهي من الغسيل حالاً حتى تشرعي في الإعداد للغداء.

وحمل حليلة الصحون إلى المطبخ، وتعمل يداها في فتات الخبز وما تبقى من حبات الزيتون، وتبلل ريقها بقليل من الماء البارد، وتكتشف أنها تقاوم الرغبة في عدم الأكل بالمستحيل، فتضع فضلات الزيتون والهريسة في الثلاجة، وتقذف بفتات الخبز إلى القفّة، وتستدير عائدة إلى الحمام حيث تنتظرها الملابس التي لم تغسل بعد، ويفتح باب البيت ليصفق، ويبدو الحاج بيده القفّة، وتسرع حليلة إليه وتأخذ منه القفّة لتفرغ محتوياتها في الثلاجة. ويدلف الحاج إلى الحمام، وجس إحدى الجارات النبض:

- يحسن بنا أن نهض إذ رما الحاج يريد أن يقضى حاجة أو أن يركن إلى الراحة.

- (أبدأ..أبدأ) إنه يحضر مصروف الغداء في العاشرة كل يوم ثم يعود إلى دكانه).

وتنفست النسوة في ارتياح، وبدت حليلة على عتبة المطبخ تنتظر خلو الحمام لتعود إلى الغسيل، ومنت نفسها بأن تتحدّث النسوة عن أي شيء حتى تسمع جديداً في يومها، ولكنهنّ لذنّ بالصمت، وصفق باب الحمام بعنف، وخرج الحاج نائراً ومزمجراً، فأخفت الجارات وجوههن وفتحن آذانهن في فضول:

- (المريلة) أتلفت تماماً.. أتلفتها (البوطاس) .. أتلفتها الإهمال.
أفقدتها لونها.. ألا تعرفن بإجاهلات أن (البوطاس) يفقد اللقونات
ألوانها..آه..آه.. لم أعد أطيق هذا الإهمال.. إننى أنوء بحمل لا
يستحق العناء.

وتأملت الحاجة واستاءت لكلمات الحاج الغاضبه أمام جاراتها. أحسبت
بأنها جرحت في كبريائها. وأفرغت جام غضبها على حليلة:

- لست أدري متى تتعلمين.. إنك سبب أمراضى وأحزاني.. أنت لا
تهتمين بشيء.. أنت أسوأ من أجببت على الإطلاق.. أي زوج تعس
سترمي به الأقدار إليك.. آه يا مصيبتى.. يا حظى.

وبقدر ما آلت حليلة كلمات أمها الجارحة إلا أن أُلها كان أكبر لقولها:
(أي زوج تعس سترمي به الأقدار إليك).. ومزقتها الإهانتان .. وضاق
صدرها حتى أحسست بضلوعها تكاد تتحطم.. ودق في أذنيها لفظ
يحيل أيامها إلى يأس مدمر.

- عانس.. أنت عانس.. لا أحد يرغبك.. وستعيشين أيامك رهينة هذه
الجدران التي لا تنضح بغير التعاسة.

دلفت إلى غرفتها في خطوات سريعة. وانخرطت في بكاء مرّ ولم
تسعفها في أحلك لحظاتها كلمه مواساة واحدة. وكرهت نفسها أكثر
مما فعلت في أي يوم مضى.

انتهى الحاج من صلاة العصر وانتعل حذاءه فيما عملت يده في السجادة تلقها. وجاء الصغار من وسط الحوش. وقد انتعلوا أحذيتهم وسرّحو شعورهم. وخذت عيونهم قبل أن تنبس شفاههم، وتشاغل الحاج عنهم ووضع السجادة فوق سطح (خزانة الملابس) العتيقة التي ختل جزءاً كبيراً من مساحة حجرة نومه. ونطلق أوفر الصغار جراً..

- نحن مستعدون.. هات اعطنا ثمن التذاكر.. وسنعود قبل حلول الليل.

وقبضت يد الحاج على القطع المعدنية التي تثقل جيبه فأعطى كلاً منهم مائة درهم. ولكن صوتاً محتجاً صرخ في دلال:

- بم نشترى الحلوى والمكسرات؟؟.

- وقذف بعشرة دراهم لكل منهم وخرج.

- وخرجوا خلفه محدثين ضجة مرحة.

ومنت حليلة لو كانت ولداً لتنعم بكل هذا الدلال، وحسدت إخوتها على سعادتهم ولون حياتهم واستاءت من فكرة أنها خسدهم. وعالجت استياءها بأن احتضنتهم في خيالها وابتسمت لشقاوتهم وخبثهم.

الساعة كانت الخامسة. والبيت كان خالياً إلا منها. وخركت في خطوات متأثة تبحث عن شيء تفعله. وانتهت من جولتها الصغيرة بين الجدران دون أن تصل إلى شيء.. واستغرقت في تأملاتها من جديد. وتساءلت في أسى إلى متى ستظل في سجنها هذا تلوك وحدتها وسأمها. وشعرت بضيق يجثم على صدرها رأت أن تزيله بأية حركة. وتنبهت إلى وجود مجلات في (المربوعة) التي يعسكر بين جدرانها محمود. وقعدت على سرير أخيها

تتصفح إحدى المجلّات التي تزدحم صفحاتها بصور البنات. وتوقفت عند صورة فتاة تكاد تكون عارية، واستغربت للمرة الأولى كيف يسمح أهل هذه الفتاه لابنتهم أن تنشر صورتها وعلى هذه الشاكلة بالذات. وبررت هذا الفسق بـ (ما بعد الكفر ذنب). وتمنت أن تعرف ما تقوله المجلة عن الفتاه العارية، وطففت على السطح عقدة الأمية فرمت بالمجلة في غضبٍ ونهضت.

صافحت عينها الأضواء المنبعثة من النافذة، وفرحت وأحسّت أنها تطل على الحياة التي تندفق حيوية عبر النافذة المواربة، وتملكتها رغبة في أن تطل من النافذة على الشارع، وأغتال سأمها كلّ مخاوفها، وأتت على تردها بخطوتين خطتهما إلى النافذة في جرأة لم تتعوّدها في نفسها من قبل، وأطلت على الشارع الكبير، وتابعت عينها الستائر المنطلقة في جنون، وتمنت أن تجن كسائقيها لتندفع بعيداً، ومرت عربة (كارو) يزدحم بالنساء والرجال والأطفال، وحسدتهم جميعهم على نعمة النزهة التي يتمتعون بها. والتقطت أذناها أصوات الصغار الذين يلهون حت نافذتها في طفولة شقية، وعاودتها ذكريات طفولتها التي كانت أوفر حظاً من صباها، وابتسمت لأطياف الماضي السعيد، وخالت نفسها صغيرة تلهو في الشارع دون أن تثير انتباه أحد..

ولحّت فتى في عمر أخيها محمود يقف على الرصيف المقابل لنافذتها. وتأكد لها أنه يراقبها فاخفت خلف الستار ولكنها فرحت كطفلة. وتلصصت عينها تتابع حركاته التي تريد أن يخفي بها عن المارة غايته. وتحدّرت أوصالها وأحسّت بسعادة تغطي على كل حواسها، وتمتت

أن يكون لها حب وأحلام، ودغدغتها تخيلاتها الشبابية، وسرحت خلف مستقبل الأيام، والفتى الواله الذي لا يكف عن الوقوف ولا يمل الانتظار، وأصوات الخاطبات تملأ البيت مرحاً وحياء، والزغاريد والفرح وأيام العرس، وعرف ثغرها لأول مرة بسممة الرضى، وأزاحت الستار قليلاً بيد مرتعشة فأتاحت له فرصة تأملها لحظة، وارتدت إلى الخلف فزعة وأحست بالإثم، وارتعدت فرائصها حتى تكاد تقع، قبضت أصابع متخشبة على عنقها، وجرتّها، يد قوية إلى الخلف، وانهالت لكمات محمود القوية حيثما اتفق، وتقبلت ضرباته دون أن تفر من عينيها دمعة أو يصدر عنها صوت، وشفي محمود غليله لكماً وركلاً، ولملمت نفسها عن الأرض في إعياء ولاحتفتها كلماته الجارحة الغاضبة:

- ستلطحين أيا منا بالعار يا فاجرة.. إننى بريء منك إلى يوم الدين، ولكننى سأموت كمدماً من أفعالك، وقبل أن أموت سأتي عليك.. انتهى منك.. كيف سأقابل الرجال في الشارع؟ كيف سيروني وسلوكك المشين من خلفي حيثما أرحل؟

يارب ما هذه الواقعة السوداء؟ ما هذه العانس التي أريد لنا أن نتحمل كل أعبائها؟ كل أخطائها.. رحمتك يارب.. رحمتك..!

الشمس تغيب، والأقدام تقل العائدين إلى بيوتهم مع المغرب، وأصوات الأمهات تأتي من خلف الأبواب الموصدة تنادى الصغار أن يعودوا، والصغار يدقون الأرض بأقدامهم غير عابئين، ولاهون بلعبهم عن كل شيء، والحياة في الشارع الكبير تسعى إلى الراحة والنوم، والجارات يتسرين من بيت الجارة التي ولدت في اليوم السابق إلى بيوتهن، والحاجة تدير المفتاح في

القفل وقد أدهشها الصمت الذي يخيم على البيت والظلام الذي يلفه.
حوّلت الحاجة عنها (جردها) وتركته متكوراً في وسط الحوش.
وسحبت قدميها من (الشبشب) وأضاءت المصباح الكهربائي فغمر
نوره الحوش، ومضت في خطوات فزعة متحفزة إلى غرفة الأولاد ودفعت
الباب وأضاءت الغرفة واتقدت غضباً:

- سبحان الله.. اللهم لا حول ولا قوة الا بالله.. لست أدري ما الذي
يجعلني أعتد على فتاة مثلك في شؤون البيت؟.. كان الأجدر أن
أنسى وجودك.. أن أعتد على نفسي في كل شيء وأمرى لله..
النوم.. النوم.. النوم.. تقضين جلّ يومك نائمة.. انهضى أيتها
البائرة.. انهضى يا مضحكة البنات.. انهضى يا مصيبتى..

وحليمة ملقاة على فراشها لا تتحرك، ومغمضة العينين لا تسمع
ولا ترى. مستغرقة في نومها العميق لا تأبه بما يدور حولها. وخالت الأم
حليمة تدعى النوم. تتحایل عليها بإعياء مفتعل يجتئها مهمة طهى
الطعام الذى كانت كلّفتها به منذ العشية، وأعماها الغضب عن كل
ما ترى. واندفعت في ثورة على حليمة وصفعتها على وجهها مفرغة
شحنة غضبها التي تعذب كل ذرة فيها. وفتحت الفتاة عينيها في
إعياء، وبدت صورة الأم الغاضبة مهزوزة غير واضحة. وذعرت الأم. فيما
عادت حليمة إلى إغفائها. وتحسست اليد العجوز الوجه الناعم في
حنان مفاجئ. وتلطخت الأنامل بدم قليل ينزف من جرح صغير وفزعت
الأم للبقع الصغيرة السوداء المنتشرة على وجه ابنتها. وصرخت الأم
بأعلى صوتها مولولة:

- ووك.. ووك.. ووك..

وتدافعت جموع الفضوليين من الجيران والمارة حتى ازدحم بهم المنزل،
والتفت النسوة حول السرير بينما ظل الرجال وسط الحوش يتساءلون
في قلق:

- ماذا حدث؟.. ماذا يمكننا أن نفعل؟

ومرق محمود من بين الرجال إلى حيث تتجمع النسوة فأغلق باب
الحجرة. ثم التفت إلى الرجال الواقفين في وسط الحوش يدفعهم إلى
الشارع في غضب:

لا شيء.. لا شيء...أختي مرهقة وكفى.. سأتدبر الأمر بنفسى..!

وخرج الرجال إلى الشارع، وأوصد محمود دونهم الباب. وعاد محملاً
بشحنات من الغضب. فركل باب الحجرة بقدمه ودلف إلى حليمة
التي وعت من لحظة بعد أن استنشقت بصلاً مقشوراً وحالت النسوة
وولولات أمه بينه وبينها. وخرج مغلوباً لا يكاد يتبين أين يضع قدميه.

الساعة العاشرة مساءً، والصغار أمام الشاشة الصغير يتابعون في مرح أحد المسلسلات والحاجة تجلس على نطع مستندة إلى الجدار والشاي الأخضر يغلى على النار والحاج على كرسيه العتيق ينفث في قلق سحبات الدخان:

إن إجاب البنات كارثة نصيب الرجال.. لو كانت ولدًا لما حدث ما حدث.. ليته قتلها وأراحني منها ما دامت ألسنة الناس ستلوك فضيحتنا..

إذن فأنت توافقه على فعلته.. كنت أظنك تترقب رجوعه لتتأر لابنتك المسكينة.. ولكنكم من طينة واحدة.. قساة.. قساة..

إسكتي.. أنت التي أفسدتها.. البنت أمّ دون شك..

وتركن الحاجة إلى الصمت جنباً لثورة ربما ذهبت حليلة ضحيتها، وجّر حليلة قدميها إلى غرفتها الموحشة بعد أن بنست من الجلوس إلى الشاشة الصغيرة بجوار إخوانها، وتضيق بها دنياها، وتنبض جراحها ومواقع الركلات واللكمات بألم كبير. وتلقى بجسدها المنهك على فراشها، وتبلل مخدتها بالدموع، ثم لا تلبث حتى تستغرق في نوم عميق، وتمتطيه صوب يوم آخر.

obeikandi.com

مريومة تغمز الحصان

عينها مشبعتان بالحبّ، وعيناها مشبعتان بالدموع. وعيناها مشبعتان بالتفاؤل. والمذيع يتحدّث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل. وأصغر أطفال مريومة يشدها من قفطانها، والذى يكبره مباشرة يرمى بكوب زجاجى على الأرض فيكسره. وأصحاب دكاكين البقالة يصنعون كثيراً من القصص عن نسوة الحي، والسماء لا تمطر ذهباً، وأصغر أطفال مريومة يبحث بيديه النهمتين عن قطعه خبز في القفّة.

مريومة تفرد قامتها، وتمسح بسبابتها ما تبقى من رشح الدمع في عينها. فرفيق العمر مات. أبو الأولاد مات. رجل البيت مات. ومريومة تفرد قامتها وتطل على الدنيا بعينين من غير كحل. وبعينين مشبعتين بالتفاؤل.

- يا خالتي الحاجة.. عيناك على الأولاد..

ودقت أرض الشارع بقدمين قويتين وعينين من غير كحل. ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون. ولكن مريومه بنت ناس. وأبو الأولاد مات فكل الرجال ماتوا. وأصغر الأطفال يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفّة.

وابتسم الرجل المنفوش قفّضح أنيابه الصفراء، وحكّ رأسه، وبدا في هيئة الرجل الخدوم الطيّب، وفكّر ملياً ثم ولد فأراً:

- يا مريومة.. أنت بنت ناس.. لا يجب أن تعمل في وظيفة ومنظفة..
افتحى عينيك على الحياة وكوني شيئاً آخر أفضل..

ومريومة بنت ناس، وبنات الناس لا ترفع عينها إلى أعلى، وتمتمت الأرملة كأنما تخاطب ذاتها مجيبة في استحياء:

- بالاسيدي المسؤول.. لا أستطيع أن أكون أفضل من منظفة. أبى لم يدخلنى مدرسة وأمى لم تعلمني غير الكنس..

قالت الأنياب الصفراء متودّدة:

- يا مريومة.. أنت تملكين الكثير من المؤهلات..

سألته:

- هل ستجد لي عملاً؟

- نعم.

- متى؟، عدنى..

- غداً.

ومضت مريومة تدق أرض الشارع بقدمين قويتين وعينين من غير كحل. ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين، ولكن مريومة بنت ناس، والصغار في البيت ينتظرون، والطريق إلى الصغار لا بدّ أن يكون مفروشاً بالإصرار.

- باركك الله يا خالتي الحاجة.

- يا مريومة يا بنتى تزوجى. فللاطفال رب يحميهم وأعمام يهتمون بهم.

ذرفت مريومة ابتسامة:

- يا خالتي الحاجة.. أبو الأولاد مات.. فكل الرجال ماتوا.. أجل كل الرجال.. ودفعت كبير صغارها إلى البقالة المجاورة وفي يدى الصغير دراهم قليلة، وفي عينيه شوق إلى قطعه خبز وقرص جبن، وصاحب البقالة المجاورة قاعد على صندوق خشبي ينث دخان لفافته ويتحدث إلى القعود في لغة العالم:

- أبو الأولاد مات.. وأم الأولاد فجرت.. رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب، رأيتها في الشارع تمشى بين الخيول والعيون والمراهقين والرجال. رأيتها بإحدى عينيها المكحولتين تغمز حصاناً.. والمرأة امرأة يا رجال.. أنتم تعرفون أن المرأة تحتاج رجلاً ونقوداً، فإن لم تجد ما تحتاجه في البيت مرقت إلى الشارع تبحث عنه، ثم إنني رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب تغمز بإحدى عينيها المكحولتين حصاناً.

وامتدت يد أكبر الصغار بدراهمه القليلة، وحق صاحب البقالة المجاورة في الدراهم وهز رأسه مستنكراً، وثم انفجرت ضاحكاً حتى دامت عيناه اللتان سيأكلهما الدود والتراب، وهمس لأكبر الصغار بصوت عال:

- فلتعطنا أمك ما أعطاهها الله، ولتضف إلى دراهمك القليلة دراهم أخرى لأبيعك حاجتك من الخبز والجبن، فإن لم تكن لديكم نقود فلتغمز أمك حصاناً آخر.

ومضى أكبر الصغار إلى المريومة التي كانت تنتظر فجر اليوم التالي في ظهر اليوم الأول. وجذب الصبر والفجر. ودقت مريومه أرض الشارع بقدمين قويتين وعينين من غير كحل. ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وفهقهات المراهقين وفضول العيون، ومريومة بنت ناس، والله في الوجود، ونصف المجتمع لا يجب أن يبقى مشلولاً، وأبو الأولاد مات أجل.. أبو الأولاد مات..

- السماء لا تحطر ذهباً.

- نعم.

- ولا بد أن يفكر الإنسان بعقل.

- نعم.

- وأنت تفكرين بعقل.

- نعم.

- تعالى إلى البيت عشية اليوم... سأبحث معك طبيعة العمل الذي يمكن أن تؤديه.

- في البيت؟

- ولم لا؟

ودقت أرض الشارع بقدمين قويتين وعينين من غير كحل. ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وفهقهات المراهقين وفضول العيون ومضت في طريقها المفروش بالإصرار، فأصغر الأطفال لا شك يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفة الفارغة..

- ثلاثة أرغفة وعلبة جبن، ونفت صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته وحدق في عينيها غير المكحولتين، وصار حصاناً في التو، فتقياً ابتسامه، ناولها الحصان الأرغفة والجبن، ورفض أن يفقدها دراهمها القليلة، فالله يحب المحسنين.

- فليباركك الرب يا خالتي الحاجة..

- فاجرة أنت. فاغري عن وجهي..

ودقت اللعنة إصرارها طيله عام، وأبو الأولاد مات، ومريومة لا تجيد الرؤية بعينين من غير كحل، وأكبر صغارها يحدثها في طفولة:

- سيدي الحاج محمود اشترى دراجة لابنه صلاح، جئت كي ألعب مع صلاح فطردهني وشتمني، قال إنني شحاذ، وكان قميصي الممزق يشينني بين الصغار، وكان أخى سليم يرح والذباب على العتبة بلا سروال، فركله محمود بحذائه الجديد بينما كان يحمل صينية الأرز المعتادة إليك، ولم أستطع أن أنتقم لأخي، وكل الصغار يا أمه يحملون نقوداً وينعتونني بالشحاذ، فما معنى أن نعيش على الصدقات؟

- اعطيني نقوداً وقميصاً وسروالاً جديدين، واشترى لي دراجة وإلا فاحبسيني في البيت بعيداً عن كل الصغار.

ودقت اللعنة إصرارها عاماً ثانياً، وأبو الولاد مات، ومريومة لا تجيد الرؤية بعينين من غير كحل، والمذيع يتحدث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل، وأصغر الأطفال يشد مريومة من قفطانها، والذي يكبره مباشرة يرمي بكوب زجاجة على الأرض فيكسره.

- ودق باب البيت بعنف، ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته في وجه مريومة، وتقياً ابتسامته، وذرفت ابتسامته، وصهل الحصان:
- عامان يا مريومة دمرني خلالها الانتظار.. ادفعي ديونك وإلا فأني سأرفع الأمر إلى القضاء.. ألا تفهمينني؟ ادفعي.
 - ولكنني لا أملك نقوداً.
 - لنكن مقايضة... بضاعة ببضاعة..!
 - وفهمت مريومة، ومات أبو الأولاد في العام الثاني ميته الأخيرة، وهدقت مريومه في الفراغ بعينين مكحولتين، وغمزت الحصان، أجل غمزت الحصان.

اعترافات جريئة

إنني لا أذكر من طفولتي شيئاً يمكن أن أنطلق منه في روايه قصتي، ولكنني أذكر أنني كنت فتاة مدلّلة إذ كنت بكر أبوي. كنت أول من قذف به الحظ من إخوتي إلى هذه الحياة، وكان مجيئي إلى الدنيا بعد طول انتظار وصبر وعلاج، ولذا فلقد استقبلت استقبالاً رائعاً من قبل أبوي، بالغاً في تدليلي وتوفير طلباتي حتى علّمني كيف لا أحترم أحداً منهما، وكيف لا أحسب حساب أحد ولا أهتم بغضب أحد.

عندما بلغت السادسة لحقني الآخرون، أعني بقية السرب، إخوتي، جاءوا إلى الدنيا الواحد تلو الآخر، وبدأ أبوي اللذان إشتاقا طيلة سنوات معاناتهما للأطفال ينصرفان عني إلى إخواتي، وبدأت أحسّ بالخسارة التي لحقتني، بدأت أحسّ أنني أخسر حب أبوي بالتقسيط، أخسره مع كل صرخة ميلاد، مع كل دقيقة يفد فيها على الدنيا قادم صغير، وبدأ لفرغ يلفني، بدأت أحسّ كأنني أعيش في هذه الدنيا وحيدة، وسيطر الإحساس بالوحدة، نعم، كنت أحس كأنني منبوذة، محرومة من دفق الخنان والحبّ الذي كان يغمرنني، أحسست بكل هذا رغم أنني لم

أكن أتعدى السادسة من عمري، وبدأت أبادل أبوي نكراناً بنكران، وعدم
اكتراث بعدم اكتراث، ووجدتني أكره أبوي وأكره إخواني الصغار، وأميل
إلى الانطواء وحيدة في لعبي، في معيشتي داخل البيت وخارجه.

ومرت السنوات ونفسي تأبى أن تميل إلى غير الوحدة والرغبة الشديدة
في معاكسة أي أمر يصدر إليّ من أبي، من أمي، من إخواني الذكور
الذين يصغرونني، والذين أراد لهم غرورهم الغبي أن يتحكّموا فيّ فقط
لأنهم ذكور ولأنني أنثى. كنت أعاندهم، أكايدهم، أتشاجر معهم حتى
أنني اضطررت في إحدى المرات إلى ضرب أخي الذي يصغرنى مباشرة،
ضربته ضرباً مبرحاً حتى كدت أقضي عليه كعقاب له على رغبته
الغبية في استعبادي، في إذلالني، رغم أنني أكبره، رغم أنني الأولى في
حياة الأسرة.

من باب العناد - ليس إلا- واصلت دراستي، التحقت بالمدرسة
الإعدادية في بنغازي، ورغم مواصلة دراستي التي جاءت نتاجاً لعنادي إلا
أنني وجدت في المدرسة ما ينفس عن كبتني، ما يبدد وحدتي ويسليني،
ولذا وجدتني أتشبّهت بالدراسة مدفوعة بقوة أكبر من عنادي، وتخلّصت
على الشهادة الإعدادية لأخرس الجميع. لأثبت لهم أنني أصنع شيئاً
مجدياً بذهابي إلى المدرسة فأسكت آخر حجج المعارضة التي كانت
تواجهني من أسرتي.

عندما حصلت على الإعدادية كان عمري خمسة عشر عاماً ولم أكن
حتى ذلك الوقت أعرف شيئاً، كنت مغلقة تماماً عن الأفكار الجنسية

رغم همسات وغمزات أُمي المتواصلة ونصائحها لي بأن لا أقفز حتى لا أفتقد بكارتي، ورغم حديث زميلاتي في الفصل عن الشبان والحب والحياة، ولم أكن في حقيقة الأمر أرغب في معرفة شئ عن عالم الجنس الغريب، ولكن فراغي دفعني إلى القراءة خلف الجدران في البيت.

وجدت في الكتاب صديقاً عزيزاً، رفيقاً لا يملني ولا أمّله، أفضى في رحابه كل وقتي، لذا وجدنتي أقرأ كثيراً، بدأت بقصص الاطفال فقراتها جميعها رغم عدم تناسبها مع سنّي، نعم لم تكن تتناسب مع سني لأنني كنت أحس أنني كبيرة وأن الأفكار التي تعرضها قصص الاطفال ساذجة وغبية. بعدها، وفي السنة الأولى الثانوية، بدأت أجه اتجاهاً جديداً في قراءاتي، بدأت أقرأ قصص الكبار، قرأت لنجيب محفوظ ولتوفيق الحكيم وليوسف السباعي ولحمود تيمور ثم لإحسان عبد القدوس.

عندما بدأت أقرأ لإحسان عبد القدوس كان عمري سبعة عشر عاماً، وكنت في السنة الثانية الثانوية، وكنت أحس أنني كبرت بالفعل بدليل نظرات الرجال التي تخترقني فأنتعثر وحمّر وجنتاي وأحسّ بالدماء حارة في عروقي، وكانت جلّ قصص إحسان لا تدور إلا عن الحب والجنس، وكان أبطال إحسان يخرجون من غرفة مقفلة يتبادلون تحت سقفها الحب في بساطة، وكنت أحسّ أنني بطلة كل قصة أقرأها، كنت أحسّ وكأنني أعيش في القاهرة حيث أبطال إحسان الذين يبدع في تصويرهم.

وعرفت الجنس من خلال كتابات إحسان عن الحب، وأدركت الجنس من

خلال التطورات التي طرأت على كل جزء في جسدي، فصرت لا أقرأ
لغير إحسان ولا غير الجنس، ودخلت السنة الثالثة الثانوية، وبدأت أحب،
نعم أحب، أحب شخصاً وهمياً لا وجود له في الواقع، شاباً غير واضح
الملامح، ولكنه رقيق مؤدب، يحدثني عن الحب في لغة الشعراء، يشبع
أحاسيسي في غرمتي بالحنان الذي حرمته، أجد في اللجوء إليه خلال
ليلي الطويل.

كل سعادتي، اتنفس أنفاسه وألقى في ابتسامته الودودة حياتي،
وسخرت من نفسي، من خيالي الذي يعالج وحدتي باختلاف حبيب لا
وجود له، ولكني لم أستطع أن أتخلص من حبيبي المجهول الذي ظلّ
- رغم كل عنادي - يلاحقني حيثما حللت ومهما حاولت أن أنصرف
بفكري عنه.

وحصلت على الشهادة الثانوية، وكان كل أملى أن أدخل الجامعة،
ولكن مجلس العائلة اجتمع ذات ليلة وقرّر أنني كبرت، وأن خروجي
إلى الشارع حتى لو كان بقصد الدرس والتحصيل يشكل خطراً يجدر
بالعائلة أن تتجنبه، فكيف يمكن أن أقعد إلى جانب الرجال في مدرجات
دون أن يحدث ما لا تحمد عقباه؟!

وحاولت أن أقنع المجلس بأنهم يحكمون عليّ بالإعدام، وأنه يجب أن
أنهى دراستي التي قطعت فيها شوطاً كبيراً، وكنت في حقيقة الأمر
متحمسة لرغبتى في إكمال دراستي كي أوفق في الحصول على حبيبي
الذي صنعه خيالي في دنيا الواقع، وكى أوفق في الحصول على شهادة

تكسبني صفة خاصة دون بنات شارعنا. ولكنني رفضت ككل. لم أسمع على الإطلاق. قوبلت كلماتي بأمر غير قابل للنقاش. أمر يقضي بحرماني من إكمال دراستي حتى لو استدعي الأمر استعمال القوة. ولجأت إلى غرفتي أبكي، أنزف دموعي على مخدتي. وكلمات أخي الذي يصغرنى تأتيني نائرة في غباء طفولي يكاد يدفع بي إلى الجنون:

- لا يمكن.. لا يمكن أبداً أن أكون مضحكة بين الناس...!!

وأبي.. وأمي.. عمي... خالي... كلهم يطيبون خاطره ويعدون به أنني لن أرى النور أكثر ما رأيتهم وكرهت الطفل الذي يريد أن يصنع من نفسه رجلاً على حسابي. كرهته أكثر ما كرهت الجميع. وعريد في داخلي عنادي. عنادي القديم، الذي لازمني طيلة سنوات عمري. وقررت أن أفرط فيما حاولوا أن يحفظوه بالقوة.

بدأت أقف خلف الباب وأراقب ابن الجيران العبيط الذي يغازلني منذ شهور. بدأت أمنحه الابتسامات وأغذي مراهقته بالإشارات. وبدأ الشاب يتسمر بالساعات الطويلة على عتبة الباب، متودداً، متقرباً ملوحاً بين الحين والآخر بقصاصة في يده، وكنت أكرهه، ولم يكن حبيبي الذي حلمت به في خيالي، كان مجرد إنسان تافه يبحث عن امرأة. عن شيء يشغل به فراغه، عن قصة يرويها لأصدقائه. ولكنني كنت أريد أن أستعمله في حربي ضد أهلي، وكانت رغبتى عمياء في أن افعل، كانت رغبتى مجنونة لا يحكمها عقل ولا منطق ولا يسرها سوى عنادي. عنادي على خطييم أهلي.

وخططت للجرمة، وبدأت أنفذها بمنتهى الثقة، أشرت له فجاءني مهرولاً، وسلمته بيد مرتعشة قصاصة صغيرة، وجاءت الساعة الثانية صباحاً، وخركت من فوق فراشي الدافئ تسلفت في خطوات بطيئة بقضة إلى الباب أفتحه لأعبر الأمطار القليلة إلى (مربوعته) ؛ وعلى سريره المتواضع أعطيته نفسي، أعطيته جسدي، دون أن أحس به، وافترسني في بهيمية وانتهى مني في دقائق، ونهضت دون أن أتبادل معه كلمة واحدة، نهضت منهكة القوى، خائفة، متبلدة، دون أي إحساس بأي انتصار، وجررت خطاي إلى الشارع فالبيت أحمل عاري على أكتافي.

ليلتها لم أم.. كان الألم يمزقني، ألم في جسدي، ألم في روحي، ألم من نوع جديد لم آلفه من قبل، وكدت أوقظ أُمي لإبلاغها بما حدث، ولكنني استغنيت عن إبلاغها بالبكاء، بكاء مرّ لم ينته إلا مع خيوط الفجر...

في الصباح اعتراني شعور عارم بالذنب، شعور بالجرمة، إحساس بالهانة، إحساس بأنني لست سوى إحدى بطلات إحسان الساقطات، وكدت أجن، قررت أن انتحر ولكنني كنت أجن من أن أفعل، قررت أن أهرب ولكنني تصورت نفسي وضيفة على الأرصفة مطاردة من الأهل والشريطة والذئاب، واحترت، وأفقدتني حيرتي شخصيتي القوية، شخصيتي المميزة، شخصيتي العنيدة، وتبدل إحساسي تجاه أهلي، لم أعد أكرهم، لم أعد أمقتهم، بدأت أتلقهم وأحاول أن أكسبهم، وكسبتهم بالفعل، كسبت أُمي، وأبلغتها بأنني فقدت بكارتي، أفهمتها أنني ففرت من فوق الكرسي ففقدت بكارتي، وجن جنون أُمي ثم جنون

أبي، ولكنهم اتصلوا بإمام الحلة وأبلغوه بما حدث لي، وحررت شهادة طبية بالواقعة اعتمدها الإمام الذي يشهد بأننا من أشرف أسر بنغازي، ووضعت الشهادة في المحكمة، وعدت أكره أهلي أكثر مما فعلت طيلة حياتي، وبدأت أنشفى بانكسارهم والذل الذي يلون تصرفاتهم ولكنني كنت أتعذب. كان سبب عذابني إحساسي بتفاهة حياتي التي أعيشها. وأبلغت بانني سأزف إلى ابن عمي الذي يكبرني بعامين، ولم أتأثر بالبلاغ الرسمي رغم كل المظاهر التي أحاطتني في أعقابه. كنت أحسّ وكأنني مكلفة بغسل صحون أو كي ملابس أو أي شيء من هذا القبيل...و... نقلت إلى حجرة صغيرة في بيت عمي، وقبلني ابن عمي كما أنا، قبلني بعاري البريئة منه بموجب وثيقة رسمية صنعتها الثقة، وبدأت أعيش حياة جديدة مع إنسان لا يعرف أكثر من رصف علب الطماطم على الأرفف، بدون شخصية تميزني، بدون إحساس حقيقي بالحياة في كنف حبيبي الذي رسمته في خيالي، ولم يكن ابن عمي يحس بشيء مما أحس به، كان بعيداً عني في عالمه بين أمه وأبيه وإخوته يعيش حياته متغندرا بما حدث في السوق من مواقف غبية لا تضحكني، وعدت إلى إحسان من جديد، عدت إلى وحدتي ألوك عذباتي وأحزاني، أعطى ابن عمي ما يريده في ليله دون أن آخذ منه، لأغلق على نفسي بابي، أمضغ أحزاني وألوك تعاستي وأخاف من نفسي على نفسي، أخاف أن أتعثر فأقع، أقع ذات الواقعة التي وقعتها قبل زواجي، وأحتار، واستغفر الله وأستغفر نفسي واستغفر أهلي وأذوب في الأحزان.

obeikandi.com

شحنات الكراهية

أنا طفل، عمري عشر سنوات، وأكره أمي كثيراً، وأتعذب في كرهها لأنني لا أريد أن أكرهها، أريد أن أحبها كما يحب الصغار أمهاتهم، لكن نفسي لا تفيض بغير كراهيتها، أكرهها كما لم يكره طفل أمه من قبل، وأنتم لا تهمكم أحزاني، فأنتم لا تنفعلون بأحزان أحد حتى لو كان طفلاً مثلي، لأنكم لستم سوى تركة حريين بلدت الأحداث الهائلة أحاسيسها وأفقدتها مشاعرهما وجعلتها لا تختلف في شيء عن الجماد، ولكن معذرة أيها الكبار لأنني سأحدث لِنفسي تمام كما يحدث معي كل ليلة، وسأبكي وأبكي وأشحن ذاتي بكراهية أمي وكل الكبار.

إنني طفل حقوق، طفل يغلي داخله بكراهية هائلة مدمرة، رغم أنني لم أكن كذلك منذ عام، فمنذ عام كنت طفلاً آخر كنت طفلاً مدلاً كنت وحيد أبي وأميرهما الصغير الذي لا يُرفض له طلب ولا تُرد له كلمة، كنت طفلاً سعيداً كغيري من أطفال العالم السعداء بل وأوفرهم سعادة، وكنت أعيش وأبي وأمي في بيت صغير ولا ينبض قلبي بغير الحب، حب أمي وأبي وحب بيتنا الصغير الواقع في آخر الزقاق، وحب

كل قطعة أثاث في بيتنا. وحب أطفال شارعنا وعجائزه وشيخوخه، وكل هؤلاء كانوا يحبونني حباً كبيراً. حتى أواني المطبخ كانت تحبني ولقد وقفت على هذا الحب بنفسني.. لعلكم تتساءلون كيف؟! سأحدثكم..

أذكر أن أمي كانت تضع قدرًا نحاسياً ضخماً فوق خزانة المطبخ، وكنت أقف إلى جانب الخزانة أحادث أمي التي كانت تقف في ركن المطبخ تعد الغداء، وظلمت واقفاً لساعة ثم حركت، تخطت قدمي عتبة المطبخ ووقع القدر على الأرض، أي حيث كنت أقف، وابتسمت للقدر الذي عرفته لتسع سنوات في بيتنا الحبيب، وشكرته من قلبي على تفاديه الوقوع على رأسى الصغير.

كنت لا أحتمل الابتعاد عن أبي ولو للحظة، فكنت أقضي العشيّة معه في ملاعب الكورة أو دور الخيالة أو (سوق الظلام) أو أحد المنتزهات أو كبرى المحلات التجارية، حيث أنتقي ما أريد من ملابس أو لعب دون اعتراض، ولا أنام إلا ورأسى على ركبتيه، وكان هو الآخر لا يحتمل الابتعاد عني، وكان كلما عاد من العمل ظهراً يسأل عني فأجري إليه وأعانق ركبتيه فيرفعني إلى صدره ويشبّعني تقبلاً وهددة ودغدغة، وكنت أعرف أن أبي يدلّني، وكنت أجد في تدليله سعادتي التي لا تضارعها سعادة، وكان يصرّ على أنني رجل وعلى أنه وعلمه فإنني يجب أن أقعد مع الرجال وأحدث اليهم بل وأناقشهم في أقوالهم وآرائهم، وكانوا يجدونني مسلياً لأنني أحدث مثلهم في كل شيء وبصورة لا توحى إلا

بأنني رجل مكتمل النمو رغم سنوات عمري القليلة... هكذا كنت أعيش حياتي. وهكذا كنت أحبها.

وحدث ذات يوم أن عدت من المدرسة ووضعت حقيبتي في (المربوعة) وخلعت حذائي وجوربي. وأحصيت ما في جيبتي من نقود صغيرة ثم خرجت فاغتسلت وعدت إلى (المربوعة) التي كنت أصر على الجلوس فيها كما يفعل شباب شوارعنا الذين يكبرونني. وأذكر أنني قررت يومها أن أدعو أبي إلى دار الخيالة على حسابي لأنني كنت أملك قيمة تذكرتين. وفرحت كثيراً، ومنيت نفسي باللحظة التي يعود فيها أبي وأدعوه إلى مرافقتي وعلى حسابي، وانتظرت يومها طويلاً ولكن أبي لم يعد.

وجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر وقرصني الجوع ويئست وجاءت أمي:

- أبوك تأخر على غير عادته... اخرج وابحث عنه...!!

وكانت جزعة... نظراتها... كلماتها... ملامح وجهها... كل شيء فيها كان يبرِّجف. وخفت لأول مرة في حياتي. أحسست بوقوع كارثة ما، وضعت قدمي في حذائي وفتحت الباب واصطدمت عينايا بعيني سيدي سليمان، الذي كان سيطرق الباب، وغاص قلبي في قاع داخلتي وسألني الرجل:

- أين أمك؟

وذهلت لسؤاله السمج، واحترت. كيف يجرؤ على السؤال عن أمي؟ وعقدت حاجبي وقلت من خلال أنفاسي التي تلاحقت:

مالك وأمي...؟ إنني رجل البيت فماذا تريد؟

ومسح براحته على رأسي ودفع إلى بابتسامه فزعة. وحولني عن الباب حتى كدت أفقد اتزانى. ومرق على الرغم مني إلى السقيفة حيث كانت أمي. ودخلت من خلفه وكدت أطرده. ولكن أمي لم تخف وجهها عنه كما كانت تفعل مع بقية الرجال بل دعتني إلى (المربوعة) غير أن الرجل لم يستجب وقال في كلمات مقتضبة:

- لقد وقع حادث لسعيد.. صدمته سيارة في طريق عودته من العمل.

وأصبت بخرس. لم أستطع أن أنطق بكلمه واحدة. تحركت عيناى فالتفت بعيني أمي. وجدتها متجمدة خرساء هي الأخرى. أفقدها الخبر فدرتها على فعل أى شيء. واحتار الرجل أمام سلبيتنا فأضاف:

- جئت من المستشفى وسعيد في كامل وعيه... مجرد إصابة بسيطة.

- وولدت أمي واستدارت عائدة إلى وسط الحوش وظل الرجل واقفاً في السقيفة يحدق في غباء وصرخت في وجهه غاضباً:

- أبى لا يمكن أن تصدمه سيارة... إننى أعرف مدى حرصه... إنك تكذب... أنت كاذب.

والتفت الرجل إلى و صوب عينيه المليئين بالغضب والحنان وصرخ:

- أسكت... أسكت يا ولد!

ودخل خلف أمي، التي علا نحيبها وبكاؤها لسوء حظها. ومزقتنى كلماته الجارحة رغم ادعائه الحنان. ودخلت من خلفه لأجره إلى الشارع

وقد تملكنتني كل غيرة أبي على أمي، وقررت أن أطعنه بالسكين الحاد الذي تحتفظ به أمي في المطبخ إن رفض الانصياع لأمرتي. واقتربت منه أشده من سرواله، وطعنتني كلماته في سويدائي:

- البركه فيكم... لقد توفي سعيد... عوضكم الله فيه خيراً...

- ولم أسمع بعدها سوى صرخة أمي الأولى، ولا أذكر سوى أنتي وقعت على الأرض وغبت عن وعيي تماماً.

نهضت بعد ساعتين، وجدتنى في غرفة مظلمة على سرير في بيت أحد جيراننا الطبيين، قفزت مفزوعاً وهرولت إلى بيتنا، وتخللت الهرج والمرج والوقوف والنساء المولولات والدقات على الصناديق، ودفعت باب (المربوعة) فوجدته مقفلاً، دفعته بقوه فانفتح، ودلفت إلى وسط (المربوعة) فوجدت أبي مسجى، ورفعت الغطاء الأبيض عن وجهه، وانهلث أقبل شفتيه وعينيه المقفلتين ووجهه الأصفر وأغرق كفنه في دموعي وأصرخ مستغيثاً:

- أبي لمن تركتني؟؟ لمن تركتني يا أبي؟؟... ليمّ تموت؟ وما الحكمه في موتك؟؟ إننى أحبك...أحبك... فلمن تركتني؟... أبي... أبي...!!!

وأبي لا يستجيب وقد تخلّى عني تماماً، مات كل شيء فيه حتى حبه الكبير لي، أبي لم يعد أبي أبداً... مات وانتهى!!

وضعت أصابعي على جفونه محاولاً أن أفتح عينيه، أن التقى به، فما كان يجب أن يرحل دون كلمة وداع واحدة، دون أن يضمّننى إلى صدره

ويمطرنى تقبيلاً وعناقاً، وحباً وسمعت وقع أقدام غاضبة، وقبضت يد حجرية على عنقي، وجرّتي سيدي سليمان إلى الشارع فيما اهتم بقية الرجال بإعادة أبي إلى سابق وضعه، وانتزعت نفسى من يدى الرجل الكريه، وأصلحت من هيئتي، وجلست على أحد الكراسى المصفوفة إلى الجدار، وجاءني الرجال يعزوني، واغرورقت عيناى بالدموع ولكنّ أبي كان يهمس لي في حب:

- كن رجلاً أمام الرجال.. كن رجلاً وإلا غضبت منك...

وانتهت ليالى العزاء الثالث، ومضى أسبوع وخلا البيت من جميع الذين شاركونا أحزاننا، خلا من الجيران والأقارب والأصدقاء، وبقيت في البيت أنا وأمّي، وعذبتنا الليالي الموحشة في غياب أبي وافتقدنا ضحكاته وكلماته وحكاياته وحنوه وحرصه على إسعادنا، ولكنني كنت ألتقي به في كل ليلة، في نومي وفي يقظتي، وكان يداعبني ويلاعبني ولكنه كان يوصيني دائماً أن أكون رجلاً وأرعى أمّي وأحفظ اسمه والألاحق به سوى الرحمة، وكنت أعده من خلال دموعي بأنني في مستوى المسؤولية وأن عليه أن يطمئن في رقدته النهائية إلى أنّه ترك من بعده رجلاً يرعى بيته تماماً كما لو كان موجوداً.

وعشنا في بيتنا الصغير الذى تولت الدولة دفع إيجاره، ودبرنا حياتنا بالمرتب الذى صرت أنقاضاه من المصلحة التي أعطاهها أبى كل أيامه، واعتدنا حياة الوحدة، وأحببت أمى أكثر ما كنت أفعل، أعطيتها كل ما في قلبي من حب وعوّضتها عن حب أبي لها بحب أكبر، واجتهدت في سبيل

توفير جميع ما يحتاجه حتى أنها كثيراً ما كانت تتحدث إلى زائراتها عن قدرتي وحرصني على إسعادها، ولم يكن ينغص أيامي سوى زيارات سيدي سليمان لنا وادعائه قضاء مصالحنا باعتباري صغيراً، وكنت أرفضه، أرفضه بكل غيرة أبي، بكل رغبته في أن يظل بيتنا شريفاً متمسكاً بتقاليد العريقة، وكنت ألوم أمي في أحيان كثيرة ولكنها كانت تبرر تردده بأن هناك من الأعمال ما لا أستطيع القيام به، وبأنه حتى أقاربنا تخلّوا عنا وتركونا بعد وفاة أبي، ولم أفتنع طبعاً بالمبهرات التي كانت تمضغها أمي، ولكنني كنت حريصاً على حسن علاقتي بها وعلى ألا أجرحها بكلمة.

ومضت سنته أشهر، وألقيت في جوفي أول بذرة كراهية حقيقية، وأعلنت لأمي عن سخطي، ورجوتها أن تطلع عن الزينة والخروج إلى الأعراس والأفراح احتراماً لأبي الذي كان يحبّها كثيراً ويغار عليها من الطائر الذكر، ونبهتها إلى أنه لو كان أبي حياً لما سمح لها بهذا السلوك، ولكنها كانت لا تعبر صرخاتي وملاحظاتي أي اهتمام.

ذات يوم وجدتها مرتدية أغلى ما لديها من ثياب وكل ما لديها من ذهب، وقد أجادت تلوين وجهها بالمساحيق والأصباغ فبدت جميلة، كما لم تبد في أي يوم من أيام حياتها، وعرفت أنّها مدعوة إلى فرح ووخزتها بملاحظة قاسية:

- إلى بيت العريس رغماً عنك.

كنت أشير إلى مبالغتها في الزينة واللباس، وجاءتني كلماتها فكانت إجابة شافية لكل ظنوني وهو اجسى.

- تأخذ السوء... بم تختلف عنى أجمل عروس فى العالم ؟ إننى
عروس أنا الأخرى...!!

ودفعت بابتسامة متوجسة. وحالت الدموع بينى وبين وجه أمى الذى
خلته ملطخاً بدماء أبى. وضربت أول بذرة كراهية حقيقه جذورها فى
أعماقى. وانسحبت إلى (المربوعة) أجرّ أحزاني وارتميت على السرير
وانتحبت كثيراً وتمنيت أن يعود أبى إلى ملكته ويعفينى من هذه
الهموم. وجاءنى أبى بوجهه السمع الحبيب وأخفيت رأسى فى صدره.
وبكيت كثيراً حتى خلت نفسى أنتهى دموعاً. وظل أبى يشدنى إلى
صدره ويبكى هو الآخر. وأيقظتنى أمى وهددتنى بإرسالى إلى أعمامى
إن لم أكف عن سخافاتى. وأخفيت رأسى تحت الوسادة وتركتها تذهب
إلى الفرحة... ومضت أيام كئيبة أعيشها وحدي فى (المربوعة). أجتزّ
ذكرياتى السعيدة الأقلة وأحلم بلقاء أبى والارتقاء فى أحضانه. وأحقد
على أمى وأرفض حديثها أو الالتقاء بها ، وتكررت زيارات سيدي سليمان
حتى صارت يومية لا مناص من توقعها وقبولها رغم أننى طردته أكثر
من مرّة.

وجاء اليوم الذى كنت أهرب لقاءه. وأبلغنى خالى أن المرأة بلا رجل
موضع شبهات وأقاويل، وأنه لا يرتضى أن يداس اسمه تحت الأقدام. وأن
سيدي سليمان سيرعاني وأمى خير رعاية، وسيحل محل أبى. وأنه يجب
أن أقف إلى جانب أمى وأبارك زواجها.

ورغم أنه كان يتحدث إليّ، ورغم أننى أدركت كل كلمة من كلماته

إلا أنني كنت أحسّ وكأنه يتحدث إلى غيري. كلماته كانت تعبر وكأنها لا تهمني. محاولته الغبية كانت بعيدة عن عقلي، ووقف يستشيرني فرفعت إليه عينين دامعتين وابتسمت في ألم:

- افعلوا ما تشاءون... افعلوا ما تشاءون... أنتم أصحاب الرأي...
والقرار.

- وكنت أعرف أنني أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت. وأن رأبي لا قيمه له. وأني لست سوى طفل صغير لا يعني شيئاً بالنسبة لهم. وانطويت على نفسي بكل أحزاني وأحقادِي وكرهِي... وأحترق وأحترق... والتقى بأبي في أحلامي ويقظتي. أشكو إليه، وأصرخ، ويظل على صمته لا يستجيب، لا ينطق بكلمة. فقط كان ينظر إليّ بعينين دامعتين معبأتين بالشفقة علي والتجاوب مع أحزاني وكراهية أمي.

إنني أغفو الآن أيها الكبار، وسأستغرق في نوم عميق، وستأتيني الضحكات من الغرفة المجاورة، وسأجرع عذابات الدنيا وأحزان العالم وألامه، وسأكره أمي، وأكرهكم جميعاً.. ولكن... معذرة... إذ أنني نسيت أنني أخذت إلى نفسي.

obeikandi.com

أقوال شاهد عيان

متكومة فوق فراش المرض، مجرد شيء، أى شيء، وجه أصفر ثم أسود و أسنان عيث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة بعد الأخرى، شفاه تهدأت، شعر تساقط فقصر ثم ابيض حتى صار في لون الثلج، العينان ذبلتا، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار في إمكان طفل أن يحتويه.

- دنيا...

قال شاهد عيان وأضاف...

١

في العام السادس عشر من بدء الرحلة. لم تكن "حياة" مجرد شيء، أى شيء، كانت وجهاً نقياً في لون الورد، بشفتين صغيرتين شهيتين، وشعر غزير أصفر، طال حتى اجتاز الحصر، وأسنان ناصعة كحبات البرد، وجسد فاره مصقول رغم صغر السن.

كل رجل رأى "حياة" لا شك اشتهاها، بينما عشقها كل رجال الحي.

ولكن حياة في العام السادس عشر من بدء الرحلة لم تشتتو ذكراً ولم تعشق أياً من رجال الحي.

- صبية غزة.

هكذا قال شاهد عيان.

٢

.. في العام السابع عشر من بدء الرحلة، لم تكن ساذجه علي الإطلاق "حياة"، إذ كانت تدرك جيداً أنها فاتنة شهية. وأن الله حباها بجمال خارق دون بنات الحي كله، وكانت على صغر نابها، تتلذذ بنظرات الذكور التي تخترق الجسد الشفاف المكتنز حتى العظم، وتنصب فيه العينين السوداوين إلى أعماق النفس، لكن "حياة" تتلهى، لأن "حياة" في العام السابع عشر، لم تشتتو ذكراً، ولم تعشق أياً من رجال الحي.

- غرة لعوب.

قال شاهد عيان.

٣

.. في العام الثانی والعشرين، عشقت "حياة" ووقع المحذور، وحلمت بالزوج والبيت والولد، لكن الفتى اليافع الذي عشقته "حياة" لم يشتهها في أي يوم، ولم يعشقها كغيره من رجال الحي، ظل يصب

فتوره على نيرانها، ويدلق غروره على كبريائها، ثم صار يحتقرها، يزدريها،
فشأن الفتى اليافع لم يكن قط شأن كل الذكور.

وشحنت "حياة" بتجربة مريرة أحرقت كل نبتة شعور، فصارت مجرد
دمية جميلة، قاحلة لا تنبت في تربتها بذور.

حاول الرجال، حاول الفتيان، حاول كل الذكور لكن "حياة" باردة
كالثلج، وصامتة كالموت، لا تحب، لا تكره.

- عاشقة مجرية.

هكذا رآها شاهد عيان.

٤

.. في العام الخامس والعشرين، تزوجت "حياة" من رجل ثري، أعطى
أبويها كل شيء وأبتاعها في لهفة بكل ما يملك، ذلك لأن «حياة» لم
تكن قد بارت بعد، ثمارها بالغة النضج، والرجل الفحل المسن شاء أن
يستمتع بما أحل الله من طبيبات، فيما تبقى له من أيام العمر تماماً كما
شاءت "حياة" أن تستمتع بالمال الحلال.

واستمتعت "حياة" بالمال الحلال، واستمتع الفحل بطيبات ما رزق،
لكن الله شاء أن يتوفاه فمات.

ولم تحزن "حياة" شأن كل الأرامل، لم تلطم الخدود أو تشق الجيوب أو

تنوح، فالثروة باقية وليس سواها وريث.

- أرملة لعوب.

هكذا وصفها شاهد عيان.

٥

.. فيما تلا العام الخامس والعشرين من أعوام، صارت "حياة" أسطورة تلوكها ألسنة الفتیان، وتروى مغامراتها العذارى سرّاً في خفر، ذلك لأن "حياة" كانت تعشق الرجل من رجال الحي أو الفتى البكر المفتون. ليوم أو لأسبوع أو ربما لشهر، وتوظف لخدمة عشيقها «الشيطان»، والنقود. حتى إذا ما كبلت صيدها بالفتنة والمال، وصيرته تابعاً والهاً، ارتشفتة حتى الثمالة، وقذفت بما تبقى منه خارج حدود عشيقها الجنون.

- فاجرة مجنونة.

هكذا صتّفها شاهد عيان.

٦

.. عندما بلغت الثلاثين، لم يعد مجون "حياة" سرّاً تحكيه العذارى في خفر أو يهمس به مراهق لغزّ مفتون، أو تتناقله عجائز الحي وشوشه في البيوت الموصدة، إذ صار مجون "حياة" حديث كل العذارى والمراهقين والعجائز، وعلانية دون حياء، حتى خشي كل سكان الحي أن يصاب الأولاد والبنات بطاعون "حياة" فأحاطوها بكراهية سوداء، ثم هدّوها بالقتل

إن لم ترحل عن الحي.

ونُبذت، فحققت "حياة" على الرجال، وعلى الفتيان والبنات والعجائز
وعلى كل سكان الحي، واسودت الدنيا أمام عينيها اللتين كانتا جميلتين،
وقررت الرحيل إلى حي غير ذلك الحي، ومشحونة بالحقد والفجور.
- فاجرة حقود.

هكذا وبها شهاد عيان.

٧

.. في العام الأربعين، وفي "غير ذلك" الحي، حجت إلى بيت الله الحرام،
وبدت ثرية ودودة متعبدة، وتصلى لله في كل وقت، وتعطي من مالها
الكثير، لليتيم والفقير والسائل والمجروم، فأحبت كل القلوب، لكن
"حياة" لم تحب أحداً، إذ تعلمت الحذر، ووعت تماماً كيف تعامل البشر،
وصار هدفها أن تبحث عن سبيل مأمون لإخماد جذوة الجنس في الجسد
المفتون، فتزوجت من فتى في العشرين، وأمضت في ربوع شبابه عاماً،
ثم طلقته، فقال سكان غير ذلك الحي، إن الزواج وفق الكتاب والسنة أمر
مشروع، وعن الطلاق كذلك أمر مشروع وإن كره، ومضت "حياة" في
اللعبة الجديدة.

- مزواج مطلق.

- هكذا قال شاهد عيان.

.. في عامها الخمسين. ضجرت من حبّها القلوب في غير ذلك الحي.
 وخشيت الأمّهات على أولادهن من حبائل العجوز المتصابية. وتمنت على
 الله كل عذارى الحي أن تموت. ثم حاصرتها تلك الكراهية السوداء. وطلب
 إليها أن تكف عن جنونها أو ترحل. وانفض من حولها كل الفتیان. ماعدا
 راغب في لذة عابرة. أو غافل لا يلبث حتى يضيّق فيفر. وبدت " حياة "
 للعيان كمهرج شوه وجهه بمختلف الألوان. والمرأة من غيها تتصابي
 وتغوى من دون أن تصيب حتى أقل الفتیان. وجذوة الجنس تلك اللعينة
 تلهب الجسد. وتعمى العينين اللتين كانتا جميلتين. وحاصرتها تلك
 الكراهية السوداء بعنف. وطلب إليها أن ترحل أو تموت. وبكت " حياة "
 " كما لم تبك امرأة من قبل.

- مهووسة تلك العجوز.

نألم حالها شاهد العيان.

في عامها الستين. تكومت فوق فراش المرض. مجرد شيء. أي شيء.
 وجه اصفر ثم اسود. أسنان عبت المرض بجورها فتساقطت الواحدة
 بعد الأخرى. شفاه تهدلت. شعر تساقط فقصر ثم ابيض حتى صار
 في لون الثلج. العينان ذبلتا. الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار

في إمكان طفل أن يحتويه. وكان هذه المتكومة فوق فراش المرض لم تكن قط صبية غرة. تلذذت بنظرات الذكور تخترق الجسد الشفاف المكتنز حتى العظم. أو عاشقة في ربيع الصبا غلم بالحب والزوج والولد. وكأنها لم تكن عاشقة مجرّبة أو زوجة مدلّلة تعبت بالنقود. أو امرأة ناضجة تنهل من معين الشهوة في نهم. كأنها لم تكن.. قط.. كأن قلبها لم يخفق بحب. أو يشحن بكراهية كل البشر. كأن المتكومة لم تكن قط حياة.

وقاطعت (حياة) شاهد العيان بأخر أنفاسها تلفظها في وهن.
فطأ رأسه وأردف في أسي:

- ها لقد انتهت الرحلة. ها لقد انتهت المهزلة!

obeikandi.com

دموع طفل لا يعرف الموت

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً عندما علا الصراخ في الشارع الصغير. وشرع الفزع ثم الفضول يفتحان كثيراً من العيون والأبواب المغلقة طيلة الليلة البارحة. وما أن مضت ساعة حتى كان حوش منزل "عثمان" يغض بالعديد جدا من النساء، وقد تملكتهن هستيرية عنيفة أجيد افتعالها. وأمسك بعضهن بعصي. يطرقن بها في قوة صندوق أرملة عثمان الأخضر المرصع بالقطع النحاسية الصدئة. بعد أن أفرغ ما كان يحتويه من ملابس.

واستيقظ أصغر أطفال المتوفي. أيقظته الطرقات العنيفة وصراخ النسوة ولولتهن. وما تخلل كل هذا من هرج ولغط وكلام أتى من حيث تجمع الرجال أمام المنزل:

- فليرحمه الله... لن يفتقده سوى أطفاله.

- لأطفاله رب كريم.

- عثمان رجل مبارك والآلام مات يوم الجمعة..

- فلنتدبر أمر الدفن حتى لا يسرقنا الوقت.

وقفز الطفل من على السرير المنزوي في ركن الحجرة التي يشاركه فيها أخوته، وظل واقفا لبرهة، فرك عينيه، اندفع خارج الغرفة بأعوامه الخمسة، وسرواله الكاكي القصير وقميصه المقلّم عن السروال إثر نومة قلقة، وقدميه الصغيرين الخافيين المتسخين، اصطدم بامرأة كانت تتراجع إلى الخلف وتولي. وقع على الأرض، التفتت المرأة، وسألها فيما كانت تندب حظه وما ينتظره من شقاء:

- ماذا حدث؟... أخبريني لماذا أنتم هنا؟

- لمن ترككم؟... يا لحظكم العاثر... يا لأيامكم السوداء القادمة...

- لماذا تتجمعن هنا؟... لماذا تصرخن؟.. لماذا تكسرن صندوق أُمي بعصيكن؟...

- آه يا صغيري المسكين.. لن ترى بعد اليوم لحظة سعيدة.. ستعيش أيامك تعيشاً مقهوراً.

والطفل لا يفهم شيئاً، ولا يستطيع أن يفهم شيئاً. والمرأة تنخرط في بكاء حقيقى مرّ، وتختزن الطفل في حنان صادق، فيما تجول عيناه الصغيرتان عبر الحوش ليرى ابن جيرانهم الصغير واقفا عند عتبة السقيفة ويده كرة قدم صغيرة، فينفلت من بين أحضان المرأة، ويسعى في صعوبة من خلال النساء إلى أن يصل حيث يقف الطفل الآخر فيبتسم - علي.. أكنت تلعب بكرتي؟..

- جئتك مع أُمي.. وجدت كرتك في ركن الحوش.. لم أجدك.. أخذتها لألعب بها..

- تعال.. نخرج ونلعب في الشارع !

وينصرفان إلى الشارع، ويطلب منهما أحد الرجال أن يبتعدا عن حيث يجلس المعزون، فيجريان بعيدا ليقفا على مقربة، آخر كرسي مصفوف الى الجدار، ويبدأ اللعب.

ويتحرك الجيران والأقارب بسرعة حتى لا يسرقهم الوقت، فيشرعون في إجراءات الدفن، يذهب أحد الجيران إلى البلدية لاستخراج إذن الدفن، وينصرف ثانٍ إلى (سوق الظلام) لابتياح الكفن، ويهرول ثالث إلى المسجد لدعوة الفقيه للقيام بالواجب.

والكراسي القليلة المصفوفة على جانبي الشارع تستقبل الكثيرين لتودعهم بعد لحظات قليلة، فالناس تكره الموت والحزن والولولة، ولا تأتي للتعزية إلا مرغمة.

وتمضى الساعات سريعة متوالية، ويأتي رجل بيده إذن الدفن، وثان يتأبط قطعة قمائش بيضاء، وثالث يعلن عن موعد قدوم الفقيه.

ويلوك الرجال أحاديث تافهة عن الشاي المغشوش وطعم لحم الغنم المستورد، والمساكن الحكومية، وشوارع بنغازي المحفورة أبدأً، وشركة الحافلات، وأي شيء آخر يستطيع أي من الحضور أن يقول فيه جملة واحدة مفيدة.

عقارب الساعة تطوى الأرقام في جدّ ودأب نادرين، وأصغر أطفال المتوفي لا يعبأ ولا يهتم ولا ينتبه لغير كرة القدم الصغيرة التي يتقاذفها وابن جارهم الصغير.

ويأتى الفقيه، ويختفي داخل البيت ليقوم بالواجب، فيتغير مجرى الحديث بين الرجال ويتحدثون عن الآخرة، وعن منكر ونكير، وعن الصراط وطاعة الله، ويعمّهم خشوع مؤقت يزايلهم لحظة خروج انفقهم، ويعاودهم بعد بقليل، حين يرتفع صوت المؤذن معلناً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وتتزاحم الأقدام والجثث والأيدي حول النعش، لتشارك في حمل وولو لمسافة قصيرة حتى ينوبها أجر عظيم، ويظهر أصغر أطفال المتوفي من بين الحشد العظيم، وقد بلّت وجهه دموع غزيرة، وعلا صوته في نحيب مرّ يقطع نياط القلوب، وينتبه رجل للطفل ويتألم لدموعه، فيلكز رفيقه مشيراً إلى الطفل:

- أصغر أطفال عثمان.

- أنفاس الولد تكاد تنقطع من البكاء..

- لا ينزل الله بعبد كارثة إلا وغلفها بالصبر..

- له الله.

- ومضيان..

والطفل يصرخ.

وتهز الصورة رجلاً آخر يسير في مؤخرة الجنازة، فيقف، ويتحرك في اتجاه الطفل، يمسك به، يرفعه ويحتضنه ويدس رأسه الصغير في صدره، يمسح بيده على رأسه، يتمتم في أذنه.

- لا تبك، أنت رجل، عيب أن تبكي..

- لا.. دعنى. أنزلنى. أريد أن أذهب إلى أبى..

- كن عاقلاً يا صغيرى..

وينفلت الطفل من بيدي الرجل. غير أن الرجل لا يلبث حتى يمسك به ثانية. فيعود الطفل إلى النحيب ويصرخ..

عنى يا سيدى.. دعنى أذهب إلى أبى وأخبره أن علياً فرّ بكرنى ورفض أن يعيدها إلي...

ويبهت الرجل. وترتخي أصابع يده. وينطلق الطفل إلى حيث كان ينام أبوه في الليلة البارحة..

obeikandi.com

زغاريد الملائكة

رغم أنه تجاوز السبعين عاماً بشهور قليلة، إلا أنه مازال يدق الأرض بخطوات صلبة وقامة معتدلة، متحدّياً في شموخ سني العمر الشقية التي وأن تمكنت من طلاء شعر رأسه ولحيته باللون الأبيض، ومن تغليف عينيه بسحابتين صغيرتين رماديتين تضطرانه إلى الاستعانة بعكاز يتحسس به الطريق متى ساءت الرؤية أمام عينيه إلا أنها لم تتمكن من فتّ عوده الصلب، أو إحناء قامته المعتدلة.

ورغم أن طبيعة حياته الريفية، ختم ارتدائه ملابس متواضعة، تشوّهت بطين الأرض وزرعها إلا أنه كان أنيق الهندام نظيفة تفوح منه رائحة طيبة تكسبه وشيب رأسه ولحيته وقارا وهيبة.

هكذا كان يبدو سيدي ”الحاج عثمان ” في عيني خالتي ”مبروكة“ عندما كان يدق أرض المرف في ”المصلحة ” بخطواته الصلبة إلى أن توقف واستند إلى الجدار الموازي للجدار الذي تستند إليه ”خالتي مبروكة“ وقاعدة في انتظار دورها شأن كل الواقفين في الممر المزدهم.

حدّق سيدي عثمان ملياً في الواقفين والقاعدين وأدرك أن دوره سيتأخّر

كثيراً، فتململ واعتمد على عكازه في وقفته، وعاد يجيل عينيه الضبابيتين عبر الوجوه المحتشدة في الممر الضيق، والتقت عيناه بعيني "خالتي مبروكة"، فبدت له عيناها ودودتين حزينتين. وأحس بشيء ما يشده إلى العينين المغروستين في وجه عجوز. مازال يناضل من أجل مسحة من جمال، واستنفذته سنوات العمر الطويل.

قالت خالتي مبروكة مخاطبة "سيدي" الحاج عثمان...

- أقعد باشائب.. إن دورك سيتأخر ولن تقوى على الوقوف طيلة الوقت.

وبدت له ودودة، وبادلها الابتسامة التي طفحت علي صفحة وجهها حتى فاضت بها عيناها، ولكنه شاء أن يثبت لها أن سني العمر الشقية لم تفت في عوده، وأنه مازال قوياً على الاحتمال.

قال "سيدي" الحاج عثمان...

لا.... لا داعي لأن أقعد... سأظل واقفاً.

وصممت خالتي مبروكة فلم تعلق بشيء، إلا أن سيدي الحاج عثمان شرع بتأملها في ود، فبدت له في الخمسين إن لم تكن قد تجاوزتها، غزا الشيب شعيرات رأسها فكافحته بالحناء، ونال منها الفقر إلا أنها حرصت على مظهرها من خلال رداؤها النظيف المتواضع، الذي تلفه في عبايتها حول جسدها العجوز، وعاد ذلك الشيء الذي يشده إلى عينها الودودتين الحزينتين يدغدغ أعماقه في حنو، وأحس بندم لرفضه دعوتها له بالجلوس، وشرع يفكر في طريقة تصل ما انقطع من حديث.

وخرج من أحد المكاتب المجاورة عجوز آخر يدق الأرض بعكازه في غضب،
واستوقفته خالتي مبروكة متوَدِّدة...

- خير؟... إن شاء الله خير ياسيدي حمد؟

- ووقف "سيدي" حمد يتصفَّح وجه العجوز التي كانت تبدي لهفة
حقيقية وانتبه إلى أنه كان يقعد علي الأرض في المر بجوارها، وأنه
بادلها الحديث لدقائق، فابتسم رغم غضبته، وأجاب التي مبروكة..

- أجل الموضوع إلى موعد آخر شأن كل مرة... إن المصالح الحكومية
جيد فن المماثلة إجابة أصيلة... كان الله في عوننا...

وانتهت خالتي مبروكة إلى سيدي الحاج عثمان يتابع حوارها مع
الرجل في قلق، ذلك لأنه ربما.. ربما.. من يدري؟

وابتسمت ابتساماً حقيقية صويتها نحو "سيدي" حمد بعدما
قررت أن تلعب - كأنتي - لعبتها، وشدت سيدي حمد من طرف عباته:
- اقعُد أرح نفسك قليلاً... لا يجدر بك أن تخرج وأنت على هذه الحال
من الغضب.

- وقعد سيدي حمد على أرض المر بجوارها، وشرع يشرح لها من
جديد تفاصيل موضوعه الذي بلغ حدّاً من التعقيد لم يبلغه
أي موضوع آخر، وبدت خالتي مبروكة مهتمة حتى بأدق تفاصيل
الموضوع. مغفلة سيدي الحاج عثمان تماماً، وإن كانت تسترق إليه
النظر بين حين وحين لتتبين مدى تأثير لعبتها عليه...

ومضى وقت استنفد سيدي الحاج عثمان خلاله ذخيرته من الصبر،

وأفرغ أثنائه سيدي حمد ما في أعماقه من شكواى وأحزان. ونهض سيدي حمد وودعته خالتي مبروكة بدعواتها من أجل أن يكون الله في عونته. وقرر سيدي الحاج عثمان أن يلقي بالعناد والكبرياء جانباً حتى سنحت الفرصة. وسنحت الفرصة في التو. إذا ما لبثت خالتي مبروكة أن دعته إلى الجلوس بجوارها في لهجة مبطنة بالبراءة.

- تعال أقعد يا شائب... إذ يبدو لي أنك لم تعد تقوى على الوقوف.

ودون أن ينطق بكلمة خطأ خطوتين في اتجاهها. وقعد إلى جوارها مستنداً إلى الجدار ذاته الذي تستند إليه. واحتواهما الصمت للحظات. وقررت خالتي مبروكة أن تبادر بالحديث:

- مسكين ذلك الرجل الذي مضى منذ لحظاتٍ. إنه...

وأشاح عنها سيدي الحاج عثمان بوجهه. ونفث أنفاساً حارة محملة بكل ما اختزنه خلال انتظاره من غضب. وكأنه يحتج على حديثها عن غريمه. وانتبهت خالتي مبروكة إلى هفوتها التي ما لبثت أن بدت تكلمة موفقة للعبتها الأثوية المحبوكة. فصمتت وابتسمت ثم استطردت:

- لا بأس يا حاج...؟

- بيه... وما الذي يجيء بنا إلى غير البأس...؟

- دنيا.. لم ترحنا من مشاكلها ولا أراحت نفسها منا...

- صدقت. مشاكل. مشاكل. كان الله في عوننا...

- ما هي مشكلتك يا حاج...؟

- أرض... أرض اشترأها والدى من الحكومة التركية عندما كانت تحكم البلاد، وعادت الأرض إلى بعد وفاة والدى... سفحت من أجلها العرق إلى أن استصلحتها وزرعتها فصارت تعطى ثماراً طيبة. أقمت فيها بيتى، وعشنت على ترابها ألثم حباته عند كل صلاة شاكراً لله على نعمته. إلا أنه تبين. منذ عام أو أكثر - أن الأرض غير مسجلة باسم والدى.. تصوري...

واستوعبت خالتي مبروكة قضية الرجل جيداً، ومضت تناقشه بحماس دافق، مؤكدة له أحقيته في ملكية المزرعة والبيت قبل غيره. محاولة قدر جهدها أن تقترح عليه المسالك المؤدية إلى ضمان حقه حتى بدت في عينيه خبيرة بكل المسائل في كل المصالح الحكومية.. لكنها بدت، وبدرجة أكبر وأوقع في نفسه، مهمة غاية الاهتمام بأحزانه ومشاكله.

قالت خالتي مبروكة وكأنها استدركت:

لكن.. لماذا لا توكل الأمر إلى أحد أولادك؟... إن قضيتك تحتاج جهداً وصبراً..

وابتسم سبدي الحاج عثمان في مرارة.

أولادى؟... أين أولادى؟ بنت تزوجت منذ سنوات ولا تزورنى إلا في المناسبات لأنها تعيش كأخويها في المدينة.. والولدان لا يزوراننى إلا في المناسبات ويلحان على أن أترك المزرعة وأعيش معهما في المدينة. لا يهتمان أبداً بتراب الأرض الذى عشقته.

قالت خالتي مبروكة:

- يا سيدى.. البركة في رفيقتك.. أما الأولاد فهذا شأنهم.. يكبرون..
ويتزوجون ويمضون..

وعاد سيدى الحاج بيتسم في مرارة، وذلك لأن رفيقته مضت هي الأخرى
إلى ربها منذ سنتين وليرحمها الله، لقد كانت حبيبة حقيقية، منحته
الحب في سخاء، ومنحته الوفاء في غير ما تقتير، عملت معه في الأرض،
وعملت من أجله في البيت، وما انفرجت شفثاها قط عن ابتسامه إلا
وكانت صدى لابتسامه بدت على شفثيه.. أما الآن... فإنه يعيش في
البيت الكبير وحيداً... بلا رفيق أو أنيس، يمضى لياليه الطويلة الباردة
في صقيع الريف وأيامه الشقية المضنية في الإشراف على العمال.
وتأوه في أسى، وكأنه شاء أن يطرد كل هذا الأحزان ليخلص لخالتي
مبروكة من جديد.

قال سيدى الحاج عثمان:

- إننى بلا رفيقة.. لقد ماتت منذ سنتين..
- ورغم أن خالتي مبروكة شاركته أساه إلا أنها أحسّت بفرحة تزغرد
في أعماقها، إذ ربما.. ربما... من يدري؟..

قال سيدى الحاج عثمان معتذراً

- لقد نسيت ما الذى جاء بك إلى هنا؟

- قالت في ود:

ألم تقل لا يجيء بنا إلى هنا غير البأس.. ابني.. إن ابني يرفض أن يدفع لي ما يمنعني من إراقة ماء وجهي في سبيل لقمة.. إنه يعيش وزوجته في بذخ ويتركني للغرباء.. ألم أقل لك إن الأولاد يكبرون ويتزوجون ويمضون..

وتساءل سيدي الحاج عثمان:

- لكن أين تعيشين؟.. أعنى مع من؟...

أجابت على الفور:

- مع ابنتي الوحيدة.. أعنى طرف صهري.. منذ توفي الشائب..
رحمه الله..

قال سيدي الحاج عثمان:

- كان يجب أن تقيمي مع ابنك..

وردت في مرارة..

- ابني لم يعد ابني.. إن القيادة في يد زوجته.. وزوجته تكرهني..

ونضحت عينها بدمعتين حقيقتين بينما غاصت في قاع العمر السحيق. تستعرض تلك السنوات القصبة أيام كانت فتاة تزهر بزينة الحياه الدنيا. والولد والبنت والزوج... والشباب والأحلام السعيده بشيخوخة مرصعة بعدد من مرات الحج إلى بيت الله الحرام.. أيام.. يا أيام العمر..

واستغرق سيدي الحاج عثمان في عينيها الدامعتين. ليجر عبر

الدموع والأحزان إلى أعماق فيستقر في قاع ذاتها، أملاً جديداً، وعمراً جديداً، وحياة جديدة، ولم يفق كلاهما من استغراقه إلا على صوت المنادى يدعو خالتي مبروكة إلى المكتب المجاور، فتململا، ومضت خالتي مبروكة إلى شأنها، ثم عادت لتودّع سيدي الحاج عثمان، لكنه شدّها من طرف رداثها فأقعدها إلى جانبه، وهمس لها في وء:

- انتظريني.. سنخرج سوياً.. وربما سنرحل معاً إلى مزرعتي..

وانتظرته، وخرجا سوياً، ولا شكّ في أنّهما رحلا معاً، إذ تناهت من الأفاق البعيدة زغاريد ملائكية مبتهجة بالحدث السعيد.

بندول الزمن

- تيك... تاك... تيك... تاك

رتبت يا بندول الزمن الغادر، ملّ أنت وقاتل، ولكنتك مقتول بالزمن الأبدى، ستصدأ، تتأكل، تنتهي، شأن كل الأشياء، والزمن باق.

- تيك... تاك... تيك... تاك

وانفتح الباب، خرج ذو المعطف الأبيض، بنعثر، عيناه حائرتان، تصفح كل الوجوه المرصوصه على الكراسي، ارتدّ خطوة إلى الخلف دفعةً إلى الأمام خطوة، نهدان نافران في صدر مرضة شابة، استحييت، واستحت، قلت في خاطري، ما أحلى رحيق الحلمتين النابتتين في صدر شاب، ثم قال جدي في أعماقي: استح خزالك الله.

- تيك... تاك... تيك... تاك

همس الطبيب في أذن الممرضة، أشارت بسبابة بلورية صوبى وانتابنى خوف، داهمتني رغبة الفرار وجاءانى، يا إلهى، ماذا يريدان؟ إنى خائف لأنى صرت أخشى أن يكونا قد أدركا ما يدور في رأسى عن رحيق الحلمتين، وقفنا بجوارى:

- هل أنت زوج الأخت ؟

وأشار ذو المعطف الأبيض نحو الباب الذي كان انفتح، لم أنطق، إذ كان يخاطب آخر في قاع أعماقي. وهو أنا، لكنه ليس أنا الذي يحدق في شفتي ذات النهدين النافرين، إلا أن شفتيها انفرجتا عن ابتسامة عذبة، قالت:

زوج الأخت التي ستلد؟

أجبت:

- نعم !

وكان يجب أن أقف، لكنني ظللت جالساً، شدني ذو المعطف الأبيض من معصمي، نهضت وكنت متهاكاً، فالليلة البارحة كانت مضنية، قال في حزم..

- الولادة الأولى تكون في الغالب صعبة، حالة زوجتك صعبة، لابد من إجراء عملية ولا أخفيك ستكون خطيرة، خطيرة وعلى مسؤوليتك، لكن الله معنا، وقع هنا.. وهنا.. وهنا...

وقعت قضي الأمر، غمرتني تعاسة إنسان مذنب، كانت قاسية، بحجم خطيئتي، فحليمة كانت ورده رائعة في حديقة الحياة، أغراني شذاها دون باقى الورود، اقتطفتها شأن كل الرجال من حديقي الحياة، امتصصت رحيقها على مدى عام منك أيها الزمن الغادر وتكورت بطنها، انتفخ ساقها، صارت تكرهني بينما انفر منها أنا، فبا أيها الجنس الكافر، ليتك يموت في ذواتنا ويبقى الحب دفاقاً صاقياً.

- خرّف !

قال رجل يقبض على يد طفل لرجل آخر.

أضاف الرجل بينما كان يحدث في عيني الرجل الآخر..

- المال والبنون زينة الحياه الدنيا. وليس ثمة عاقل يكره هذه الزينة.

انظر. هذا الطفل يحمل الرقم الحادي عشر. فلقد وفقني الله إلى

امرأة كما أرنب. لا تعيش حياتها هدرا. كل حين تلد طفلاً رائعاً

كهذا. والأرزاق على الخلاق.

- تيك... تاك... تيك... تاك

بدأت المرّضة متوهجة الشفتين. متوردة الخدين حين واجهتنا مهرولة.

عندما تجاوزتنا تمكّنا جميعاً من معاينة ساقيهما الجميلتين دون حرج. أما

أبو الطفل الحادي عشر فقد نزع طاقيته وحك رأسه وقال محدثاً للرجل

الأخر:

- يا ما شاء الله !

ثم قال يكمل حديثاً يبدو أنه كان قد بدأه:

والتفت نحوي. ثبت عينيه في عيني. قال:

- لم لا تتكلم !؟

قلت في خاطري ولم تحقد ؟ ولم تكره ؟ ودفعت إليه بابتسامة

مجاملة. شعرت بأنها جاءت سخيفة. تضايقت من سلوكي. وتضايقت

من الرجل أكثر. قلت في خاطري أيضاً. لا أجد ما أحكيه عن مشاعري.

فأنا لم أعد أحب. لم أعد أكره. صرت مجرد وعاء نحاسي فارغ. بارد. بارد.
يا أيها الزمن الغادر. يا أيها الزمن القادر.

جاءت يتقدمها شرطي. وكانت تبدو كسيرة. في عينيها السوداوين
ذلل. في مشيها مهانة. تؤلنى جداً رؤية الجمال كسيراً ماذا أستطيع
أن أفعل بالألم لأجلها. اختفت في الإدارة يتقدمها الشرطي. سمعت
الرجل يقول للرجل الآخر:

- إزَع الولد.. سأعرف الحكاية.

- فيما أيها الألم الكبير ترفق بهذه الصبية وبكل صبية. يا أيها الألم
الكبير ما خلقت مثل هذه الأشياء الجميلة لأجلك. أو لكي يعسكر
في عينيها ذلل أو تريك خطواتها مهانة. لكنه الزمن الغادر. يشوّه
كل جميل رائع. يحطم. يدمر يستهلك كل الأشياء. يقتل كل
الأشياء

سمعته يقول:

- لم أعرف الحكاية. لكنها دون شك. مفضوضة البكارة على يدي
عاشق.

- ونودي على الولد الحادي عشر ومضى الولد في ثوبه الأبيض
الفضفاض المزركش بالزعفران إلى غرفة العمليات. شئت أن أغتنم
الفرصة:

- مبروك.. ختان؟

ابتسم في زهو وكأنه انتصر على صمتي:

- الله يبارك فيك... ختان طبعاً... ألا ترى أنه كبير بما فيه الكفاية...
وأته صار لزاماً علي أن أخته؟... أخوه...

ولم أنتبه لبقية حديثه، و ذلك لأن تلك الصبية المسكينة، يتقدمها الشرطي، بانث جَرّ قدميها بصعوبة بالغة، وكأنها تنوء بحمل الخطنين في كل الدنيا، تلقفتها العيون بخبث، ولكن الشارع الكبير احتواها فاخضت.

قال الرجل الآخر:

- أبدأ... أبدأ... دعك من العقارات... الإيجارات لم تعد مجزية، بَعْ ما عندك وتاجر في مواد البناء.. إن أنتَ فعلت، ستعيش سلطان زمانك.

للرجل، قلت في خاطري، لأنني كنت أخشاه، خَرَف، هل للزمن سلطان أيها الرجل الغافل؟ إن الزمن الغادر هو السلطان.

علت صرخة وليد وترددت أصداؤها في أعماقي، الإناء النحاسي الفارغ صار رتناً، حليلة تلك الخلوة الوديعة صارت أمماً، الفرحة في عينيها أكاد أراها، ولد تمنى أن تلد، إنه لولد أكاد أراه، فالله رغم الزمن الغادر لاشك، يستجيب لأمانيتها، تختال بين الجارات مزهوة بالابن البكر، بالعمر البكر، بالدقق البكر، أكاد أراها، والابتساماة الطفولية تنساب من العينين على الشفتين، تضيء الوجه، تطيل العمر.

وعلت صرخة أخرى، فانتابتني رعشة، حجر ناري قذف في أقصى أعماقي، تملكني خوف مرعب، ثم، هذا الإناء النحاسي عاد بارداً يا أيها

الزمن الغادر، يا أيها الزمن القادر.

- تيك... تاك... تيك... تاك

وخرج الطبيب ذو المعطف الأبيض، جاءت من ورائه الممرضة الشابة ذات النهدين النافرين، وقفا قبالتى، اخترقت نظراتى المعطف والجمالة إلى النهدين الشابين، يبدو أن ذا المعطف الأبيض كان يحدثنى، إذ أردف في رأسى:

- ولكل أجل كتاب... فليرحمها الله.

أضافت الممرضة الشابة:

- جتّد... اعنّ بالوليد.

تابعت حركة شفتيها، شفتها متوردتان شهيتان، صدرها نافر، حليلة التي ماتت، هي الأخرى كانت بشفتين متوردتين شهيتين، وكانت ذات صدرٍ نافرٍ، لكنها ماتت.

- تيك... تاك... تيك... تاك

رتيب يا بندول الزمن الغادر، مَلّ أنت وقاتل، لكنك مقتول بالزمن

الأبدى، والزمن باقٍ، والزمن باقٍ...!!

الموجة والرحيل

الشاطئي كان مترامي الأطراف، لكنه كان يبدو للمتماثل من طائرة في السماء كحدوة حصان أسطوري. تبعثرت على سطحها مظلات وخيام صغيرة زاهية الألوان لجأ إلى ظلالها المصطافون. بينما تلالأت حبات الرمل الأصفرحت أشعه الشمس المحرقه، وبدت مياه البحر الهادر ناصعة الزرقة.

كانت اللوحه في غاية الجمال. داعية إلى التأمل في هذا الكون الرحب المتفاعل . لكن الذي كان أدعى التأمل حقاً، هو ذلك الطفل العنيد، الذي رفض أوامر أبويه بانقاء ضربة شمسي قاتلة، ومضى يحفر بأصابعه الصغيرة جويماً في الرمال عند حدود أبعد موجة على الشاطئي يخمد هديرها بانتشارها على الرمال.

بدا الطفل مثابراً وكان بضايقه انهيار الرمال في التجويف. لكن إصراره كان أعنى. فمضى يحفر ويحفر ويرفع الرمال المنهالة من داخل التجويف فيقذف بها بعيداً إلى أن لامست أصابعه الصغيرة الرمال الندية، فتفاءلت قسمات وجهه، وما لبثت أن أشرقت بابتسامة عريضة

عندما ارتفع منسوب المياه في التجويف، وجّحت محاولته العنيدة.

- اسمع يا ولد... تعال... خذ... كل...!

صرخت أمه بأعلى صوتها كي يخترق الصوت هدير الأمواج إلى أذني الصغير لكن الصوت ضاع عندما انطلق صفير مجموعة من الشبان قُصد به المضايقة والاحتجاج.

التفت إلى حيث التفت إلى حيث بعض المصطافين. وفوجئت للوهلة الأولى بأشقر طويل. وقد أطبق بشفتيه على شفتي فتاته وبينما التصق بها وقوفاً دون أن يعباً بعيون الفضوليين أو بالضجيج من حوله. قال رجل مسن، ضخّم الجثّة، تكور أمامه بطنه، حاول أن يتحدث إلى منذ فترة:

- هؤلاء النصارى تماماً مثل القطط!!

لم أعلق، اكتفيت بابتسامة مجاملة بينما استطرد هو في قلق مضحك:

- أبدأ... إنهم لا يستحون.. لا يستحون أبدا..

نزع شفّتيّة من شفّتيها، انفك عنها في لطف، التفت إلى حيث جّمهر عدد من الشبان، حدق الأشقر الطويل في استغراب، حنق الرجل المسن ذو البطن المتكوّر أضاف غاضباً:

- كأنه لم يفعل شيئاً.. هذا النصراني..

اعتقدت أنني سأستثيره:

- شباب... يا سيدي... شباب...

لم أفلح. ذلك أنه ابتسم في دهاء وجر جثته الضخمة يتقدمها بطنه المتكور حتى كاد يلتصق بي. همس بينما كان يغرز في ساقى رفيقه الأشقر الطويل:

- ساقاها... ساقاها... لا أروع ولا أجمل منهما رأيت أبداً.

انطلق الصوت محتد:

- اسمع يا ولد... تعال.. تعال.. وإلا فإنني..

أجاب الطفل:

- حاضر.. حاضر..

إلا أن الطفل لم يستجب للنداء حتى أن أباه حفز لإحضاره. لكن أمه رجته بعينها ألا يفعل. فاستجاب على مضض. بينما مضى الطفل يمهد براحته مساحة من الأرض إلى جانب التجويف الذي كان قد حفره. يلتقط بأصابعه الصغيرة العيدان والعلب الفارغة والفضلات المتبسة فيرمى بها بعيداً. ثم يمهد تلال الرمال الصغيرة بصبر لا ينفذ حتى استوت المساحة التي كان حدها على الأرض. فأشرق وجهه من جديد بالابتسامة العريضة ذاتها. لكن وجه الصغير الجميل كان قد بدأ يتصبب عرقاً. والأب الذي يتابع عناد الطفل على مضض كان بدأ يفقد صبره. فجاءت استجابة الطفل لنداء أمه في الوقت المناسب.

- أقعد هنا في الظل.

هكذا قال أبوه يأمره. نظر في عيني أبيه. فرأى أن لا مجال للرفض.
انصاع مكرهاً ارتمى إلى جوار أمّو. تناول شطيرة. كانت أعدتها له. شرع
في التهامها بنهم. ففرت غضبة الأب. قال:

- ما الذى كنت تفعله؟!

- حفرت بئراً ومسحت قطعة أرض..

- ولم؟!

- سأقيم مزرعة وسأبنى قصرًا..

فالت الأم:

- لا ترهق نفسك يا صغيرى.. كل.. اشبع.. استرح قليلاً ثم خذ
كرتك والعب..

قال الأب:

- في كلتا الحالتين يلعب.. يعبت.. في كلتا الحالتين الوقت مهدور
ومنته...

قال الرجل المسن ذو البطن المتكور:

- هواء البحر منعش ورائع.. لكنه يجعلنى أجوع.. إننى جائع جداً.

استل عينيه من ساقى الصبية التي كانت تمدت إلى جوار رفيقها.
وصوبهما نحو قفة على مقربة منه. تناول رغيفاً، وثانياً، وثالثاً وكومها
أمامه على صحيفة. خاطبني متودداً:

- تفضل..

كانت الأُرغفة محشوة بالجبن والتونة والهريسة والطماطم وتوابل مختلفة. شكرته فأصرّ لكنني أفنعتُه بشبّعي. فامتدت يده إلى الرغيف الأول وشرع في التهامه بشهية غريبة.

انهماك ذى البطن المتكور في التهام الأُرغفة منحني فرصه التلصص على ذلك الأشقر الطويل. وقد تمدد على بطنه وبرز مرفقته في الرمال إلى جوار الصبية. بينما بدت عضلات جسده النحاسي القوي لامعة حت أشعه الشمس. وقد تبللت بقليل من العرق وكذلك منحني فرصة تأمل تلك الصبية رفيقته. وقد تمددت على ظهرها مستمتعة بأشعة الشمس غير عابئة بتحول بشرتها البنية إلى اللون الأسمر. ولعلها أيضاً كانت مستمتعة بسعادة عارمة. ذلك لأن الأشقر الطويل كان يداعب عنقها المرمرى بأصابعه تارة وبشفتيه تارة أخرى.

اختار الطفل موقعاً وسطاً من الأرض التي كان قد مهدها وطفق يكوم في الموقع ما يستخرجه من رمال مبللة في عناءٍ وصيرٍ إلى أن تمكن بعد جهدٍ من تشييد قصر صغير لكنه شامخ عال. بنوافذه الكثيرة، وشرفاته العريضة، وأبوابه المتعددة، وأشرق من جديد تلك الابتسامة على وجهه الصغير.

- هع..

جثناً الرجل ذو البطن المتكور. تقززت. بحثت عن عينيه. وجدتهما مغروزيين في ساقى رفيقة الأشقر الطويل.
قال دون أن يحيد عينيه عن ساقى الصبية.

- ألم أقل لك إن هواء البحر يجعلنى أجوع.. هع.. الحمد لله.

كانت الأرفة الثلاثة قد اختفت بكل ما ختويه، بينما ظلت عيناه بكل ما ختويها مغرورتين في ساقى الصبية، أضاف:

- لو كانت لى هذه الصبية.. لما أرتها نوراً.. واحدة كهذه مكانها غرفة مظلمة لا تبارحها.. هع.. الحمد لله..

واجتاحني حقد مفاجئ نحو ذلك الشيء المتكور البطن، وقد بدا في سروال البحر قبيحاً على نحو لم أخطه منذ البداية، فساقاه وذراعاه طويلة، نفرت منها عروق عديدة ونبتت عليها شعيرات في مجموعات متناثرة، ورأسه حليق وعيناه نهمتان جائعتان، للطعام، وللجنس، لكل شيء.. وكبر حقدى على ذلك الشيء المتكور البطن حتى فاضت به عيناى، ولعله لاحظ ذلك لأنه تساءل في جزع:

- لا بأس؟!

لكننى لم أجهه بل تماديت في تأملهِ متقرِّزاً، هذا الشيء العفن المتكور البطن، الذى يجوع فيأكل حتى يشبع، ويظماً فيشرب حتى يرتوى، ويضاجع برغبة ويضاجع أيضاً بلا رغبة حتى يتكرر فينتشر، ويفزع حتى يطمئن فيأمن..و..و..و...

وما لبثت حتى رأيت كل أولئك الذين من حولي، الطفل العنيد، الفتى الأشقر الطويل، فتاته الصبية الحسناء، أم الطفل وأباه، رأيتهم، جميعاً، ببطون متكورة، ورؤوس حليقة، يلهثون، والعيون نهماة جائعة، وأنفاسى تضيق، والعالم يصغر، والعيون.. العيون.. العيون..

- لا يملأ عيني بنى آدم إلا حفنة التراب.

هكذا انتزعني ذو البطن المتكور من هذياني. لم يكن يفرز عينيه في ساقبي الصبية لأنها كانت تلاعب رقيقها في البحر سباحة.

أجلت عيني عبر الشاطئ الكبير. كان كثير من الخيام الصغيرة والمظلات الزاهية قد رفع بعد أن غادر كثير من المصطافين الشاطئ. ولم يبق على حاله. سوى ذلك الطفل العنيد يفرز العبدان في حدود قطعة الأرض التي مهدها وبنى في وسطها قصرًا مقيمًا بذلك سياجًا حول القصر والمزرعة والبئر.

اندفعت الصبية من البحر جرى بطاردها رقيقها. أمسك بها فأفلتت. وجرت فجرى من خلفها إلى أن أمسك بها. احتضنها. قبلها في شفيتها. تضحكا. أسعدني ذلك المرح. إنهما عاشقان حقيقيان. يعيشان الحياة كما ينبغي.

قال ذو البطن المتكور:

- سعيد جداً بمعرفتك.. لكنني سأتركك وأرحل.

أجبتة مجاملًا:

- سعيداً أنا الآخر.. كلنا سنرحل..

أحاط الأشقر الطويل خصر رقيقته الصبيه بذارعو ومضى. التقط ذو البطن المتكور القفة ومضى. ونهضت أرثدى ثيابي. بينما اختفي قرص الشمس الدامي في الأفق البعيد. وعلت أمواج البحر فتماذى يهدر

ويزيد. وفاجأتني صرخة حادة مزقتني بضراوة. فالتفت مذعوراً لأجد
الطفل ذلك العنيد يندب حظّه، إذ حدث أن دُمّرت موجة عاتية القصر
والمزرعة. والبئر. أنت على كل شيء فحولته إلى فناء.

قال أبوه مواسياً:

- لا تبيك.. لا شيء يهم.. هيا بنا..!

لكن الطفل مضى يبكي في لوعة حقيقية، ويدق الأرض بقدميه
رفضاً، بينما انشغلت عنه أمه بالاستعداد للرحيل غير عابئة، ومسح
أبوه بكفه على رأسه في حنان:

- قل لي.. قل لي.. هل كنت ستأخذ المزرعة والقصر معك عندما
ترحل؟!

ويبدو أن السؤال قد فاجأ الطفل العنيد الغرّ فكفّ عن النحيب
وحدّق في عيني أبيه بذهول.

قالت الأمّ، وقد فرغت من الاستعداد للرحيل:

- قالت له منذ البداية.. خذ كرتك والعب.. اعبث.. ولا تكثرث..

قال الأب:

- كلتا الخالتين لعب.. اعبث.. وفي كلتا الخالتين الوقت مهدور ومنتهٍ..

ثم قال للطفل:

- أما قصرك والمزرعة.. دمّرتهما موجة أو لم تدمرهما.. في كلتا

الخالتين ستخسرهما.. لأنك سترحل.. سترحل يا صغيري..!!

كحل العين

قدري، قيل لي، في كل الأوقات، منذ الصغير أكاد أستقر أعتاد
الاشياء، تألفني الأمكنة و أرتاح قليلاً لكنني أرحل، مرغماً، أتوق إلى
الخلاص دون جدوى.

قدري، قيل لي، وجعي، ذاك الذي في داخلي، لا يسكن أبداً، إن فعل،
فلكي يفاجئني بألم أكبر، بوجع أكثر لكي يعذبني بقدر كاف لأن أهرب
منه به إلى حيث لا أدري.
- كفاك ترحالاً يا حبيبي.

كانت تقول.

وترنو بعينين صغيرتين كحيلتين جميلتين لا تكادان تتسعان لكل ما
تمور به أعماقها من حب وشوق وعتاب، فلا أحتمل أن تنوّع عيناها بكل
هذا الدفق الهائل من المشاعر والأحزان، ولعلّ جلّ ما كان يقلقني دوماً
ذاك الحزن المختبئ في أعماق العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين،
لكنني كنت لا ألبث حتى أجأوزه في معظم الأحيان انبهاراً بمشاعر
الفرح والحب التي كانت تغمرني بها حبيبتي كلما لقيتها، أيضاً، لم

أكن أريد أن أفسد سعادة الدقائق القليلة السانحة بعد غيابٍ طويلٍ.

وأستسلم للصوت الحالى يداعبُ أوتار القلب المرهق:

- جئت يا حبيبي فلا تغادر.. كفاك ترحالاً وكفانى عذاباً.. ابق.

أجيب العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين دون أن أنبس بكلمة:

- أيتها الأعلى.. يا حبيبتي.. لا تغضبي.. ما جئت من الأفاصي

لأوجعك.. جئت يا حبيبتي كي أغفو على صدرك طفلاً هدهد

النعب. دمرته المعاناة والترحال والغربة. لا يكاد يذكر أمسه. لا

يكاد يعي يومه. لا يكاد يتبين آفاق غده. جئت يا حبيبتي ككل مرة

كي أغمض عيني وأسكن إليك فأرتاح. أغتسل. أتوضأ. أتظهر

أتكحل. أصلي في محراب حبك ركعتي عشق. ألوذ بك شأن طفل

لجأ مذعوراً إلى حضن أمه إثر ضحكك وفزع لتحتويني كل مشاعر

السكينة والأمان.

وأبدو في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين كما طفل أغضب

أمه لكنه يصبو إلى أن يفتّر ثغرها عن ابتسامته في لغة الحب الأكبر.

عفواً يكتسح بكل جلال دفته جميع الذنوب والأخطاء. وتعيدني

بالفعل طفلاً صغيراً. تقعدني على الحصيرة إلى جوارها وتتجرد ذاتي من

كل الطقوس التي تخاصرني بعيداً عنها. أحس في التو بصفاء وسكينة

رائعتين. وكأن كل الجراح قد اندملت. كل الأوجاع قد سكنت. كل الرؤى

قد اتضحت. كل الآفاق قد رحبت خضرة وفرحاً وخيراً ونماء.

وبدا لها أن العائد من السفر يتوجع إذ وجدتها تقول في حنوٍ مهادين:

- اتكى فأنت متعب.

وتريت على رأسي. تتحسس جيني. تهمس:

- رأسك ساخن.. أريض أنت؟.. قبل أن جيء.. لا أدري.. قلبي أخبرني.

- لست مريضاً.

أقول لها ثم أستطرد:

- إنني مرهق.

وأحس أن الإرهاق وحده لا يكفي لاستدرار ما يجب أن أتزود به من حب فادعي المرض كي أتوسد حنانها وأغضو. وأخلع عنى فزعي وأحزاني. همومي وتعاستي. وأغفو كما طفل تضيء ملامح وجهه الصغير ابتسامه كانت طوتها سنوات الغربة تحت ظلال جاعيد الوجه الكالح في أفاصي أعماق اليأس. لكنني أخشى الفرع الذي يضيئها كلما بدأ في الأفق أذى دنا مني أو كاد. فأمتنع.

كان يروق لها دوماً أن تلاطفني بعد فورة الغضب والعتاب إدراكاً منها ربما حجم معاناتي. أو ربما كانت تبتغي مواساتي. ذلك لأنني كنت الراحل أبداً خارج الحب والبيت والوطن.

- احك.. هه.

وتندفق الكلمات من أعماق الذات دون عائق. دون خوف. دون ترتيب. دون تردد. دون إمعان في التفكير. تندفق الكلمات الختبتة في الأفاصي. فرحة طليقة. حرة. مبتهجة. فأخالها تصيب منها العينين الصغيرتين

الكحيلتين، تضيقان فأدرك أن الإصابة موجعة، تنسعان حتى تبدوان
كما صغرهما فأعرف أن الكلمات مبهجة، لكننى في الحالتين كليهما
كنت لا أكثرش، لا أبالي، كما لو كنت أحدث إلى نفسى، فقد كنت أحدث
اليها حبيبتي.

قالت - تناولتى كوب الشاي الأخضر :-

- لو لم تكن أنت أنتى.. الأحب الأعلى.. لتصورت انك تخدعنى.. فأنت
جئى تغدق علىّ من الحب ما لم يغدقه أحد. أتمنى عليك أن تبقى.
فالحياة أنسة يوم من يوم، لكنك تتزود وترحل، تغادر إلى دنيا الله
الواسعة ككل مرة، وتركنى ألوذ بالخواء وحيدة.

كانت تتحدث في لوعةٍ، كنت أتلقى في صمتٍ، بدت في العينين
الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين دمعتان، قبضت بيمنها البضة
الصغيرة طرف ردها، مسحت الدمعتين، دفعت إلى شفيتها بابتسامه،
قالت بصوت مشنوب بأعراض رغبةٍ مكبوحهٍ في البكاء:

- اشرب الشاي.

ليتك أيتها الأعلى تدركين أن الخواء قدرى وليس قدرى.. صدقيني يا
حبيبتي.. كل أرض الله تلك ذات الاتساع غير المحدود بكل ذاك الضجيج
والأضواء والحياة ليس سوى خواء بدونك، أما الامتلاء بكل ما هو رائع
وجميل فهو هنا، حيث أنت في ” زنقة العويلة ” ذات المشاعر البكر
والأحاسيس العفوية والحكايا الحميمة والسلوك غير المبرمج والحب
وكل الحياة.

غالبتها دمعتان أخريتان، عزّ على نفسي أن تبكى حبيبتى، غالبتى
عبراتى، فما جئت أيتها الأعلى إلا لأحتويك بكل الحبّ، ماجئت إلا
لأحيطك بكل الفرح، ما جئت إلا لأختلس من عبث الوجود لحظاتٍ
أنيس وسعادةٍ وسرورٍ ماجئت إلا لأتكحل بصفاء عينيك الصغيرتين
الكحيلتين الجميلتين وسماحة وجهك الوضاء ودفق حبك القوي رغم
ما أحدثته سنوات العمر العديدة من وهنٍ، ما جئت لأبكيك حبيبتى،
جئت..

وخشيت أن يغالبنى البكاء، قلت مواسياً ومداعباً:
يا أعز الناس أنت من قال لي ذات يوم إن رزق الرجل في قدميه. ومنذ
ذلك اليوم فاطعتنى بضحكة مبللة بالدموع قائلة:

- أنت أبرع من يخلط الجذ بالهزل.. ليس على الأرض أحد أقرب مني
إليك.. لكننى لا أفهمك!..

أسعدنى كثيراً أن تضحك حبيبتى، فضحكتها التي تفجرت من
الأعماق حباً وصدقاً وسعادة رفعت عن كاهلى أعباء قلقي وتوتري منذ
أبكيته في اللحظات الفائتة.

سألتها:

- هل تشكّين لحظة واحدة في حبي لك..؟

أجابت وكان لم تكن تتوقع أن أباغتها بسؤال مباشر كهذا:

- لا.. لا.. أبداً.. هذا سؤال مرفوض.. السؤال في حد ذاته يدعو إلى
الشك.

قلت:

- حسناً.. هذا الذي قلته يدعوني إلى الامتناع عن مواصلة السؤال.

قاطعتنى فيما كانت تفرز عينيها الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين

في عيني:

- أجيبك لأنى أدرك سؤالك اللاحق.. لكن ما جدوى الكلام..؟

ونزعت عيني من عينيها خشية أن أبكي. وبذلت جهداً عصبياً خارقاً

كي أبدو كما لو أننى لم أنتبه.

أضافت:

- ابقَ هنا إلى جانبي.. لا تغادر.. لا ترحل..!

قلت:

- حسناً.. سيكون الرحيل الأخير.. سأعود إليك.

قاطعتنى في عصبية:

- لا نقل الرحيل الأخير.. هذال فألٌ سيء.

وأغمضت العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين وانصرفت كلية

إلى تمتعٍ كانت على ما يبدو دعاءً لم أتبينه . ثم قالت بصوتٍ مسموعٍ

بعد أن مسحت براحه بمناهها صفحة وجهها:

- تمشي وجليء طيب.

- اتفقنا على أن أغادر إذن.. ليس ككل مرة.. سأعود عاجلاً.. لن

أغيب طويلاً.. عديني أنت الأخرى أن لا ترحلي.

قالت:

- هذا أنت.. تخلط دائماً الجد بالهزل حتى إنك كثيراً ما تريكني إذ لا أتبين إن كنت جاداً أم أنك تهزل.

صمت كلانا برهة، أضافت:

- إلى أين يا حبيبي يمكن أن أرحل..؟! ا اكتفيت في حياتي بزيارة بيت الله وقبر رسول الله.. اطمئن.. لم أرحل.. لن أغادر ” زنقة العويلة“ سأبقى هنا في انتظارك.. حتى تعود فلا تتأخر.. عدني أن تفعل.. أعدك أن أبقى يقظة.. أنتصت طرقاتك المميزة على باب البيت.. وقع قدميك في السقيفة.. كحتك المزمنة.. رائحة ثيابك المشبعة بالتبغ.. عافاك الله.

صدقني.. كلما تعود كل مرة يخبرني قلبي أنك في طريقك إليّ قبل أن تصل الباب.. شيء في داخلي يهتّب فرحاً.. يدعوني إلى التنصت حتى إذا ما فعلت ووجدتك تطرق الباب.. تعبر السقيفة.. تتقدم.. تنحني.. تحتضنني فأحتضنك.. تبعث في كياني الحياة.. يتدفق الجسد العجوز حيوية شباباً.. انهض بك إليك جذلة.. لا أدري ماذا يعتريني عندما جيء، لكنك تمضي.. تغادر.. ترحل.. عدني ثانية أن تعود قريباً هذه المرة..

أعدك أن أنتظرك حتى تعود..

كانت كلماتها تتدفق قوية صادقة واثقة حميمة. أتلغها عطفياً متلهفاً فرحاً سعيداً بالأمل الدافق في اليوم اللاحق، غافلاً في سهو بشريّ ساذج عن عبث الزمن وخفايا الغد.

همست في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين:

- تماماً.. كما يقولون.. لن أقول وداعاً بل أقول إلى اللقاء.

غالبت رغبة جاحمة في البكاء على غير ما كانت تفعل في لحظات الوداع في وقتٍ سابقٍ. إذ كانت تنهض مُقدمة على وداعي مبتهجة بالأمل في لقاء.. آت.

تساءلت:

- لن تخلّ بوعدك؟

أجبت:

- سأعود.. وأنتِ؟..

ابتسمت:

- أعدك.

ورحلت بعد أن تكلمت بما يكفي لرحلة واحدة حباً وبهجة وطمأنينة وسكينة وانتماء وحياء. مخدوعاً في اليوم اللاحق في سهو بشريّ ظاهر عن حقيقة أبدية نلتف حولها في غفلة وعمي تماماً كما ثور الساقية. ذلك لأنني أُخبرت قبل أن ينفذ زادي بوقت قصير أن أمي حبيبتي عجزت عن البر بوعداها فرحلت كي تغيب عن عيني إلى الأبد. فلم يعد هناك من يخبره قلبه أنني قادم إليه. ولا من تنتصت طرفاتي المميزة على باب البيت أو وقع خطواتي في السقيفة أو يتوق إلى رائحة ثيابي المشبعة بالتبغ. لم تعد هناك عينان صغيرتان كحيلتان جميلتان أجد فيهما

كل ذلك الذي كنت أجده، خذلت ” زنقة العويلة“ أمي فعندما أريد لها أن ترحل لهم تتشبث بها، تركتها ترحل، ورغم أنني لم أكن موجوداً حين رحلت أمي إلا إنني أتق أنها رحلت في كبرياء فلقد كانت عفيفة تآبى أبداً أن تكون ضيفاً غير مرغوب على أحد حتى لو كان هذا الأحد هو الحياة.

قلت أخاطب نفسي إذ امتنعت بعد رحيل أمي عن البوح:

- هكذا إذن.. بين رحيلٍ ورحيلٍ تكتمل فصول المهزلة،

وظفقت أجوب كل الطرقات، أسبح في كل البحار، أحلق في كل السموات، أرنو بعينين كسيرتين نحو الأفق الواسع بحثاً عن تلك التي كانت، عن كل ذلك كان، دون جدوى، فتطحن الغربة بضراوة منى الأعماق، تطبق على أنفاسي، تبعث بكل الاثواق، يحتويوني الخواء في كل الأثناء، ألوذ بالضوضاء، أجا إلى الأماكن، أتفرس الأشياء، تبهرني الأضواء، تختلط الرؤى، تتداخل الصور أعاود الرحيل، لعلّ وعسى..!!

obeikandi.com

الفراشة

ربما كانت آخر أيام الربيع. قد يكون أيضا أول أيام الخريف. فتداخل فصول العام والذاكرة الواهنة لم يعودا قادرين على الجزم. لكن المؤكد هو أن الخريف كان وافداً وشمس ذلك اليوم كانت واهية، بينما كانت تهب بين الحين والآخر رياح باردة.

كنت أجزّ قدمي في ترددٍ صوب غايّة مجهوليّة. فساعات اليوم الطويلة وساعات الليل مؤرقة والقراءة صارت عادة ذميمة، فقصيدة البيت الواحد تتكرر بأساليب مختلفة وأحاديث كل يوم أمست معادة ومملة. والأفكار ترواح بين شدٍ وجذبٍ وكأنها أمواج بحرٍ بين مدٍ وجزر.

بدت على الرصيف الآخر كراسي مصفوفة إلى مناخذ. ورغم أنها كانت خاوية فالساعة لم تتجاوز العاشرة صباحا والجلوس إلى المقاهي في ذلك الوقت المبكر عادة غير رائجة إلا أن الكراسي المصفوفة - على أية حال - كانت تعلن عن وجود مكان يمكن أن أركن إليه.

خطوات في اتجاه الرصيف الموازي. وجدتني في مواجهة باب المقهى مباشرة، وبدأ المقهى عبر الباب الزجاجي المتسخ كئيباً وحركة النادل

الذي كان يحمل فنجانى قهوة إلى عجوزين صامتين بطيئة. دفعت الباب وخطوات إلى داخل المقهى فتعثرت قدماي بكوم من أعواد الحطب كانت مهملة على ما رأيت أو ربما معدة كي يقذف بها إلى الموقد فتحترق وتتحول بعد برهة إلى رماد.

استوقفتنى فكرة تحول أعواد الحطب المهملة إلى رماد وسأئنى عدم اكتراث النادل فانحنيت ألتقطها عوداً عوداً وأكومها في زاوية المقهى حتى لا تؤدي إلى تعثر قادم آخر. وحين انتهيت منها انتبهت إلى فضول العيون التي كانت حاصرني.

- السلام عليكم.

لم يرد أحد خييتي، جلست إلى منضدة حيث كنت أقف بجوار كوم أعواد الحطب. جاءني النادل، كان قميئاً عابساً، وقف صامتاً، دفعت إلى عبوسه بابتسامة. ظل واقفاً صامتاً عابساً، اعتدلت على الكرسي الخشبي:

- فنجان قهوة بدون سكر.

استدار ومضى قبل أن أكمل:

- كوب ماء.. كوب ماء لو سمحت!

كان يجلس إلى المناضد الخشبية المتهالكة عدد من الرجال كبار السن متشحون بمواصفات المتقاعدین بعد سنين مضنية من العراك مع الحياة الوظيفية بعيون منطفئة وأجساد مترهلة وأخرى نحيفة جافة. الوجوه في الغالب كالحة مبدورة بشعيرات بيضاء في مواقع مختلفة، نلتقى

كثرة تجاعيدها وتنوع تعرجاتها والثياب الرثة والشهد في مجمله لم يكن يدعو إلى البهجة، ففكرت أن أنصرف لكننى خشيت أن يقدم النادل بفنجان القهوة، وربما كوب الماء فلا يبدو لائقاً أن أنصرف عنه. قال أحدهم يحدث عجوزاً آخر بصوت خافت في حديث بدا أنه كان استطراداً:

- منذ عام.. منذ عام لم يتصل.. نسى على ما يبدو أنني أبوه.

طفح وجه العجوز المنصت شبيه ابتسامته، وربما حاول أن يخفف بها من مرارة عقوق ابن رقيقه، لكنه تأوه في حسرة، قال:

- دعه وشأنه.. إننى منذ توفيت أم الأولاد انصرفت إلى شأئى.. لم أعد أعير اهتماماً لأحد.

من شاء أن يجيء فليجىء ومن شاء أن يختفي فليختف.. للكعبة رب يحميها.. هه..

رغم أن حديث العجوزين كان خافتاً إلا أنه على ما يبدو كان مسموعاً أو ربما مَعاداً مكرراً متوقفاً من رفاق المقهى، ذلك لأنَّ عجوزاً يجلس إلى منضدة أخرى قال موجهها حديثه للعجوزين بصوت حاول قدر جهده أن يغلفه بالمرح:

- الأولاد صغار كما الكتاكيت، نأويهم في العش، نطعمهم، نحميهم، نقيهم فيظ الصيف وصقيع الشتاء حتى إذا مانبت الريش واشتدت الأجنحة في كل الاتجاهات وبقيت أنت في العش وحيداً.. هه.. هاها..

ظل الصمت قابضاً على المكان وظلت الوجوه عابسة والعيون نصف مفتوحة يراودها النعاس أو ربما هي تسير أعماق الماضي القصي، حين كان الجسد في عنفوانه والعقل في توجهه يقود الحياة في اجاه الغد الأروع، وضجيج الأولاد يطارد الهدوء ويصنع المرح والفرح والسعادة، لكن صوت ارتطام فنجان القهوة بسطح المنضدة وتبدد جزء من كوب الماء على ملابسي شرخ الصمت، وبدا الأمر طبيعياً حتى إنه لم يدع النادل إلى الاكتراث فالاعتذار، وكأن ما حدث أمر معتاد لا يستوجب أي رد فعل، فأغاظني. رفعت عيني إلى عينيهِ أُنْبَهُمَا. لكنني وجدته شاخصاً بهما إلى أعواد الخطب.

المشهد استبدل غيظي بدهشةٍ عارمةٍ، إذ بدت فراشة زاهية الألوان تخوم حول أعواد الخطب المكومة على غير بُعد مني وهو أمر غير طبيعي، ولا معتاد ذلك لأن زمن الفراش هو الربيع ومواطنه هي الزهور اليانعة في الحدائق النضرة، أما وقوعه على هذا النحو فهو بالتأكيد ضد ناموس الطبيعة وقواعد الكون وتوافق الأشياء، لكن الفراشة الرائعة كانت خلق وخط على أعواد الخطب في حركة منتظمة شبه راقصة حتى إن نغماً هادئاً بدا منسجماً وإيقاع حركات الفراشة تناهى إلى أسمع الرجال فانتبهوا للمشهد واتسعت حدقات عيونهم معبأة بالدهشة والانبهار.

غمرت المكان نسيمات عطرة واحتواني ما يشبه الخدر اللذيذ حين بدت هي بوجه طفولي ملائكي وعينين سوداوين مخפורين بحاجبين

مرسومين بريشة فنان أعظم تشعان بهجة وفرحاً وحياءً، وثغر لا يتعدى حجم حبة كرز حتى إذا ما انفرج عن ابتسامته بدت حبات البرد بيضاء صغيرة متناسقة كما اللؤلؤ على جيد مرمرى مسيجاً بقبلة متناغماً، وقوام رشيق من مكسو بثوب حريري شفاف فضفاض لا يعوق إيقاعات الرقص المتنامية وإن كشف بيبين حين وآخر عن ساقين بلورين.

كانت الفراشة تحط بخفةٍ على عود حطب ثم عود وعود آخر وتعود لتحلق على غير بعد من أعواد الحطب فتلامس هذا العود بأحد جناحيها ثم تنحرف لتلامس عوداً آخر بالجناح الثاني فلا تلبث حتى تحط فتستقر على عود لبرهة ثم تعاود التحليق المنتظم حول أعواد الحطب في حركة دؤوبية بدت تماماً كما الرقص توافقاً والأنغام الهادئة الشجية.

فركت عيني عدة مرات، ذلك لأن أعواد الحطب ذات اللون الرمادي صارت تميل إلى اللون الأصفر المشوب بلون رمادي يكاد يندثر، خشيت أن تكون أشعة الشمس التي اشتدت قد كست أعواد الحطب بأشعتها الذهبية فهينت لعيني الكليلتين وخيالي الجامح رؤية غير حقيقة لا تتعدى نطاق خداع البصر، لكن اللون الرمادي ما لبث حتى اندثر نهائياً، وصار لون أعواد الحطب أصفر يكاد يخضوضر على نحو واضح حائلاً بقوة دون احتمالات الخداع والزيف.

بدا انصرافي صوب أعواد الحطب انتزاعاً لوجودي من المكان، ذلك لأنني لم أنتبه إلى ما كان يجري في عين المكان، فالموسيقا لم تعد هادئة سلسلة إذ تعالت في إيقاعات صاحبة راقصة، وهي بكل فتنة

الأُنثى وبراءة البكر تنهادى بين الرجال الذين أضاعت وجوههم الكالحة ابتسامات شرهة تعوقها دواعي الوقار لكن حفيف الثوب الحريري الذي كان يلامس يد هذا وقدم ذلك. وما يصاحبه من نفاذ نسيمات عطرة أتى على كل دواعي الوقار، فنسي ذلك العجوز تماماً شأن ابنه العاق وخلع عنه معطفه ووقف مقاوماً انحناء ظهره، وشرع يصفق بقوة ضاحكاً متناغماً وإيقاع الموسيقى وخطواتها نحوه في مداعبة رقيقة مبهجة.

لم تعد الوجوه كالحة . بينما اختفت التجاعيد مغمورة بالفرح والمرح والانبهار، حتى النادل الذي كان يقف شاخصاً مبهوراً غادرت وجهه العابس كآبة ذلك الحين فتلاأت عيناه بالفرح. وأضحى يتمايل في محاولة جادة للرقص يحول دون مجاحها ثقل وزنه ووهن ساقيه.

كان المشهد بهياً. وكانت بكل ذكاء الأُنثى ودفق البكر تغمر رجلاً بعينه بدفقة حب حتى يخالها اصطفته دون غيره من الرجال فيلامس طرف ثوبها خلسةً لتمنحه هي ابتسامه، وتنصرف إلى آخر فتعاود ذات الأمر ثانية حتى تخلق كل الرجال حولها ليخترق النادل الحصار إلى وسط الحلقة يراقصها بإيقاع غير متناسق وإيقاعات الأَكف المتوحدة التصفيق بقوة تضاهي عنفوان الشباب.

فوجئت بأعواد الحطب . وقد انتصبت مخضرة وتفرّعت عنها أغصان صغيرة نامية تكاد تنثر وروداً وأزهاراً ورياحين عطرة بألوان زاهية كألوان الفراشة الدووية المنابرة، تلك المخلوقة الرائعة المباركة التي جاءت في زمن غير الزمن وإلى مكان غير المكان لتؤكد على أن مشيئة الطبيعة

قادرة على صنع الحياة في كل الظروف وأن اليابس يمكن أن ينبت أعواد الحطب متى غمرت بدفق الحب والفرح والمرح.

كان ضجيج الرجال يعلو والموسيقا تصخب والرقص يشتد. وهي ذات الوجه الطفولي الملائكي والعينين السوداوين المحفورين بحاجبي مرسومين بريشة فنان أعظم وثرغ لا يتعدى حجم حبة الكرز تغمر الرجال بالحب والرقص والمرح ، فبدأ المشهد من وراء ألواح الزجاج للممارسة ملفتاً وكأنما حفلٌ شبابيٌّ صاحبٌ راقصٌ يقام في غير المكان وغير الزمان. لكن أحداً لم يلتفت إلى كهولة الراقصين إذ بدوا في خفة وحيوية وعنقوان الشباب وفرح ومرح وسعادة ربيع العمر. إلا أن الرجال انتبهوا على التوالي إلى فضول عيون المارة الذي اخترق ألواح الزجاج إلى المكان فاستوجب الأمر الوقار وعادوا تبعاً إلى مقاعدهم يتدفقون حيوية وفرحاً وبهجة وإقداماً.

غصون أعواد الحطب أنبتت وروداً وأزهاراً ورياحين وغمر المكان طيب نافذ ينبعث منها في كل الأرجاء. وبدت الأعواد سيقان أشجار تسمق تحت أشعة الشمس في اتجاه الحياة. لكن الفراشة زاهية الألوان كانت قد اختفت تماماً. كما فعلت هي إذ حلقت في أجواء المكان تلاحقها عيون الرجال متوهجة سعادة وإطراء وعرفاناً ثم تلاشت فاختفت.

غادرت المكان عبر الطريق إلى الرصيف الآخر منتصب القامة أدق الأرض بقدمين قويتين. وقد اعترتني حيوية ونشوة دافقتان مقبلاً على غدي بفرح وانسراح وابتهاج. بينما كانت أشعة الشمس ساطعة

زاهية والنسمات هادئة عطرة تغرق الوجدان بكل مشاعر الحب والتفاؤل
والأمل. فتأكد لي أن اليوم ربيعي وأن الخريف لا يمكن أن يقدم أبداً.

هكذا على ما أجزم كان شأن كل الرجال. وهكذا على ما أذكر رفعت
عيني إلى عنان السماء متضرعاً أن تصطفى تلك الفراشة الرائعة
المباركة حور عين. وأن يصبح المكان مزاراً يؤمه الناس عرفاناً بالإعجاز.

زيارة ولد الشيخ

ولد الشيخ كان رجلاً ضخماً الجثة، جاحظ العينين، قاسى الملامح، بطيء الحركة، رث الثياب، لا يتكلم إلا نادراً فإن فعل فلا ينطق بأكثر من كلمة أو كلمتين، لكنه يمتلك قدرة غير طبيعية على الإنصات المصحوب بانسامة غير مغمورة بالفرح، فلا يظهر أكثر من أسنانه التي لا تلبث أن تختفي عندما يزم شفتيه فجأة، ويُحدث بعينه حركة عصبية تدعو إلى قلق الكبار ورعب الصغار.

- من هو ولد الشيخ؟! من أين جاء ولد الشيخ؟! أين يقيم ولد الشيخ؟!

لم يكن يعيننا نحن الصغار في تلك السنوات القصية الأمر كثيراً، أما كبار « سيدى حسين » الذين توافدوا على الحي في أعقاب الحرب العالمية الثانية من جميع أنحاء البلاد، فلم يكونوا ليأبهوا، ربما حرصاً على أمور إن بدت قد تسوءهم، فلكل وافد على « سيدى حسين » قصة لا يجوز الخوض في غمارها أو الحديث في تفاصيلها أو الغوص غير المستحب في دقائقها، إذن، لا ملاذ للوافدين على «سيدى حسين» سوى

الصمت والحذر، منعاً للضرر، ومقاومة سلبية عفوية لواقع الحال. لكن الفضول قد يطبق عليك في فسوة، فتلح على عقلك رغبة شرسة في المعرفة، حينها قد يصدك الكبار، إلا أنهم قد يخبرونك بصوت هامس مشدوب بحذر شديد:

- لا أحد يعرف اسم ولد الشيخ !!

فولد الشيخ لا يحمل إثبات هوية ولم يحدث أن أعلن عن اسمه، إن أنت ناديته محمداً أجاب، وإن أنت ناديته بغير هذا من الأسماء، أجاب أيضاً، أما إذا أصررت على معرفة اسمه، انفرجت شفتاه عن حركة تبدو كما الابتسامة، وأحدثت عيناه حركة عصبية تدعو إلى الفلق عادة، والرعب أحياناً، لكنه أبداً لا يجيب.

يقولون إن في هذا الرجل شيء لله. الأمر الذي يعني أنه أحد أولياء الله الصالحين، المغمورين الذين إن كشف سرهم ماتوا فوراً، واختفوا من على الأرض إلى باطنها، لكن هذا القول على ما علمت بعد ذلك جاوبه بغضب شديد من إمام مسجد "سيدي حسين":

- لم يحدث أن رأيت ولد الشيخ في الجامع، ولد الشيخ لا يصلي، ولا يؤدي فرض الله، أراهن على أنه لم يحدث أن اغتسل منذ ولدته أمه.. هه، اسأله عن قواعد الإسلام الخمس الواجبات.. اطلب إليه أن يسمعك سورة واحدة من القرآن الكريم.. درويش.. مخبول.. أبله.. رعا... أما ولي فلا..!!

رغم أنه إمام لمسجد بدا وكأنه يخشى على موقعه كإمام من رجل

على علاقة أوطد بالله إلا أن مداخلته لقت قبولاً لدى الحضور باستثناء
أحدهم:

- لم يحدث أن ضبط ولد الشيخ مخموراً أو زانياً أو سارقاً أو غير
ذلك..

ضحك إمام المسجد في سخرية بينة ثم قال:

- هذا ما ينقص ولد الشيخ فعلاً!!

استقرار الرأي في « سيدى حسين » على أن ولد الشيخ ليس أحد
أولياء الله الصالحين. ثم ثار جدل واسع على مدى لبالٍ عديدهٍ حول
تصنيف ولد الشيخ ما بين درويش. مخبول.. أبله. وفي جميع الأحوال
لم يكن النصر حليف فريق ضد فريق. فتم الاتفاق في النهاية بنسبة
ضئيلة على تسمية الرجل بولد الشيخ. فإن لم يكن هو الولي الصالح
المغمور فلا أقل من أن يكون ابن أو حفيد صالح.

كان من طباع ولد الشيخ أن يختفي عدة أيام ثم يعود للظهور فجأة.
وعندما سُلِّط كبار «سيدى حسين» صغاره على الرجل، فلاحقوه
ذات عشية بغية معرفة مكان إقامته. ظلَّ يجوب شوارع المدينة عدة
ساعات، حتى هلك الصغار وعادوا خائبين فيما اختفى ولد الشيخ تلك
المرّة شهراً كاملاً.

عندما عاد بعد ذلك ذات يوم يجرد قدميه المسبوقين بمكنسته العتيده.
برقت عيني مختار «سيدى حسين» بفكرة لم تكن واردة على الإطلاق:

- سأعرف من هو ولد الشيخ!؟

- كيف؟! -

- أتوجه إلى البلدية، وأبحث في كل الأوراق إلى أن أعرف كل شيء عنه... لن أغيب طويلاً.. انتظروني.

عندما عاد مختار "سيدي حسين" في اليوم التالي، بعد أن غاب طويلاً، بدا مهزوماً، فلم ينطق بكلمة واحدة، وعندما سُئل بعد انتظار عن ولد لشيخ.. أجاب:

- لا توجد ورقة واحدة تخص ولد الشيخ في البلدية.. الرجل يتقاضى أجراً يومياً غروب كل يوم. الحرس البلدي لا يعرف أكثر من أنه ولد الشيخ.

بعدما اتصلت أحياء بنغازي، وكبرت المدينة، وعبدت الطرق، وشيدت البيوت الحديثة، وارتفعت العمارات شاهقة، وازدهرت الحياة، انتهت قلة إلى غياب ولد الشيخ، لكن الأمر قوبل بعدم اكتراث، ثم بسخرية بالغة، وذات حين بحدس يرقى إلى مستوى الحقيقة:

- ولد الشيخ مات!

طيف ولد الشيخ لاحقني كثيراً في أوقات متقاربة، ثم متباعدة، فقدر الرجل الغامض كان الصمت والترحال، عاشه وحيداً، فقيراً، كادحاً، لا يعبا، ولعله قضى نحبه بعد كل سنى عمره دون أن يترك أثراً من ولد أو عقار أو صدقة جارية إلى يوم الدين.

عادني طيفه ذات يوم، بعد سنوات عندما صحوت فجراً، كنت حينها أحرق في سقف الغرفة حيث أنام، أتفحص الموجودات بعينين

دامعتين. ذلك لأننى لم أتعرف على موقعي في هذا العالم من كثرة الترحال، أستطيع أن أتذكر في أية مدينة أنا موجود !! أغرفة في أحد الفنادق هذه أم ضيف على صديق خارج الحدود؟! في مجمل الأحوال وحيد أنا، خارج دارى تطحن الغربة والوحشة والترحال ذاتي.

عزّ على نفسى ما انتهيت إليه داهمتهى رغبة جامحة في البكاء، فبكيت من أجلي. ومن أجل ولد الشيخ الذي مات دون أن يعنى أحد بمعاناته الفاتلة.

حاولت أن اغفو مرهقاً مهزوماً بعد ذلك. لكن طيف ولد الشيخ تجسد قائماً بجوار مرقدي، خطا نحوي، مصوباً في اتجاهي تلك الإبتسامة غير المغمورة بالفرح. محدثاً بعينه تلك الحركة العصبية المؤدية إلى القلق. ثم ما لبث أن توجه إلى حذائي يفرغ مما احتواه من أتربة الطرق الوعرة في كفيه الضخمتين. ويصوبه أرضاً في اتجاه باب الغرفة الموصد يختفي.

نهضت مفزوعاً. وبعدها خلعت الدقائق البطيئة اللاحقة عن فزعي، خللوت إلى ذاتي، وقد طهرتها الدموع فجراً، فانتهيت إلى أن ولد الشيخ جاء يخبرني أن الترحال قدر، كما الوحدة، لا يجدي معها إلا الصمت.

انتعلت حذائي، حملت حقيبة أسفاري، فتحت باب الغرفة، رحلت وحيداً صامتاً.

obeikandi.com

الزيتونة

هدير الوحش الحديدي يمزق صمت الصباح الرطب. الفرع يجتاح
مزرعة الحاج مبروك فتخور الأبقار تثغو الشياخ. يسهل الجواد. ينبح
الكلب الهرم. تفرقر الدجاجات. تطير الحمامات جماعة في اتجاه الأفق.
تتساقط قطرات الندى من على غصون وريقات الأشجار يُغمض الحاج
مبروك عينيه. يتمتم في أسى.

- ليتنى متّ قبل أن يحدث هذا..

تطيّب خاطره رغم نزع الألم. تلك الصبورة الودودة التي رافقته على
مدى ثلاثين عاماً

تقول:

- اصبر يا شائب.. الله غالب.

تمد يدها إليه بكوب الشاي. يصوّب نحو يدها نظرة رافضة. ترتدّ يدها
بالكوب. تضعه في الصينية. تأوه. نهض اجتاز الحوش إلى الباب. تخطى
العتبة. وقف في وسط المزرعة. اشتد هدير الوحش الحديدي. بدا ضخماً
يشق الغبار صوب جانب من السور الترابي العريض. يدكه. يكوّمه.

ينفتح عن مجرفة كبيرة تغرف كوم التراب. ترتفع. تستدير تفرغ التراب
في صندوق شاحنه قريبة، تختبئ الجرفه الكبيره فى جوف الوحش
الحديدي، يتقدم الوحش الحديدي ثانية، يدك جانباً آخر من السور الترابي، و
يكومه. دون أن يعبا بجوقه طيور وحيوانات المزرعة، دون أن يكثرث لأسى
الحاج مبروك. يهدم ويهدم ويهدم، بينما يتراجع الحاج مبروك خطواتٍ إلى
حوش البيت، منهكاً كما لو كان الوحش يدك عظامه.

يطحن سنوات الأمان والطمأنينة. يشوّه معالم سني الطفولة
والصبا والرجولة والكهولة أيضاً. تتلاحق الصور البهية الفاتنة فى
ذهنه مستغيثة.

- مبروك كبير.. جاوز السور طولاً.. انظري.

- قل ما شاء الله.. قل.. ما شاء الله.

هكذا حاور أبواه فى صباه ضحى ذات يوم . فيما كان يحتسيان شاي
الضحى تحت ظل الزيتون بجوار السور.. السور.. فوق السور
الترابى. فى ضوء القمر. قضى معظم ليالى الصبا والشباب رفقة رفاق
تلك الأيام القصية، يتسامرون، يحتسون الشاي، وربما تيسرّ لهم تدخين
لفافة تبغ فى غفلة من الكبار، عبر السور أيضاً التقت عيناه عيني تلك
الصبية الحلوة التي صارت رفيقة العمر فيما بعد. ومن خلال السور كم
كانت اللقاءات بها بهيجة حميمة، وكم كانت الوشوشات دافئة بهية.
صورة كرهية اكتسحت كل تلك الصور الرائعة فى ذهن الحاج مبروك.
جلت مزعجة مقبته:

- هذا قرار... -
- أرفض... -
- الطريق الجديد ضرورة... -
- أرفض... -
- ترفض...؟... ترفض...؟... -
- نعم أرفض... -
- أحذرك... لا ترفض... -
- أرفض أن يهدم السور... -
- ترفض القرار... -
- أرفض أن تؤخذ أرضي... أن يفتطع شريط من أرض المزرعة... -
- تتعرض للعقوبة... -
- أرفض أن تفتلع الزيتون... -
- سيعوضونك... -
- أرفض. -
- ابصم هنا... -
- لن أفعل...! -

أطبق جفنيه على الدموع التي نضحت بها جفناه، فالألم أكبر من أن تتقيمه شيخوخته بالصبر والكارثة أشد من أن يجابه بجلد الرجال، والأقسى أن يقابل كل الناس محنته ببرود وكان الذي يحدث لا يستحق

أكثر من مط الشفاه، الحوقلة، اصطلاح ” المصلحة العامة ” وكفى، حتى ولده ذلك الذى ولد وترعرع فى المزرعة، لعب حت الزيتون، جرى فوق السور صار منهم، يرتدى لباس النصارى، يقيم فى المدينة، يقتات المعلبات، يحاول كأنه طرف آخر أن يقنعه:

- الطريق الجديد.. لا بد أن يخترق المزرعة..

- خرف.

- لا بد من وصل شرق المدينة بغربها.

- خرف.

- مهندسون.. مستأحون.. دراسو المنطقة.. قدموا تقرير اللجنة..
اللجنة قررت..

يقاطعه غضباً:

- أسكت.. أسكت.

الحصار يشتد وما تقرر لأبد أن ينقذ، والدنيا تضيق فى عبنى الحاج مبروك حتى يخالها فى سعة حُرم إبرة، ورفضه يكاد يخبو فى صقيع اللامبالاة من الآخرين. تتأكد لديه حاجة شيخوخته إلى المهادنة.

- أقول لك.. أقول لك يا ولدي.. أمرى لله.. فليهدموا السور.. لكن شريطة ألا يقتلعوا الزيتون.

- سيسخرون منا.. الزيتون تقع فى منتصف الطريق مباشرة.

- الزيتون تقع فى المزرعة.. الطريق الجديد هو الذى اخترق المزرعة إلى الزيتون..

- على كل حال.. أخطرنا رسمياً بالقرار وما علينا إلا أن نرضخ
للأمر الواقع..

- لكننى أرفض.

- لا يهم.

استفزه. صرخ فى وجهه:

- اخرج.. لا أريد أن أراك بعد الآن.

الوحش الحديدى يقترب من أحد جوانب السور الترابى المخاضى للبيت
و يشند الهدير. يندفع الحاج مبروك إلى وسط المزرعة، الوحش الحديدى
يدكّ جانب السور الترابى بقوة.

يصيره رماداً، ينفث عن المجرفة الكبيرة. تغترف الكوم الترابى
المسحوق. تفرغه فى صندوق الشاحنة. يطوف الحاج مبروك بعينين
دامعتين على امتداد موقع السور. لا عشب. لا خضرة. شريط من الأرض
الترابية المبقورة تبدو كثعبان صحراوى كربه. الزيتون ستقتلع والطريق
الجديد سيخترق المزرعة، ويمتد شريط أسود عريض عبر الحقول الخضراء،
وكأنه السرطان يسرى موتاً فى خلايا الحياة، وتغرب عن الحقول كل سنى
الخير والنماء إذا ما توالى زحف الطوب والقطران على هذا النحو المقيت.
هدر الوحش الحديدى هديرًا شديدًا. استدار. مضى وسط الحقول
تبعه الشاحنة إلى الطريق الرئيس. عاد الحاج مبروك إلى حجرته خائر
القوى. استلقى على النطع. سحب الوسادة من تحت رأسه. وضعها
على وجهه. استسلم مرهقاً لإغفاءة، لكنه ما لبث حتى نهض مفزوعاً.

فاحتوته رفيقة العمر في عينها الكسيرتين:

- بمنشار ألى... ينشرون ساق الزيتونة..

ويحتدّ صوت المنشار حيناً ويخفت حيناً آخر، توافقاً مع شدة مقاومة
الزيتونة من أجل الحياة، لكن المقاومة تشتد وتشتد، وصوت المنشار
الآلي يحد، يفتح عليه أحزانه فيفجرها غضباً دافقاً تصيره اللحظة
إرادة عارمة من أجل الحياة، النماء والعطاء، فينطلق الحاج مبروك صوب
الزيتونة في وسط المزرعة، تصدّه صرخات العمال المدوية:
- ابتعد، ابتعد..

أمام عينيه تتداخل الرؤى، تتجمد في عروقه الدماء، تنغزر قدماه في
تراب الأرض،

تتهاوى الزيتونة الضخمة قتيلاً، تفتلعه رياح التهاوي من مكانه
تطيح به أرضاً، تراب الأرض يغمر عينيه وقمه، كل وجهه، ورقات الزيتونة
بدت كما غار يتوّج هامته، ضجيج هائل يتداخل، الضجيج يتباعد و
يتباعد، والرجل يغيب، يغيب بعيداً.

- مات.. مات..

مفجوعة صرخ رفيقة العمر.

- فقد وعيه..

أجاب أحد الرجال، وأفاق الحاج مبروك وقد خلّق حوله نضر من جيرانه
المزارعين يمسح أحدهم جبينه بخرقه مبللة بالماء البارد، ثان يتلو سورة

من القرآن، ثالث يحتضنه في ودّ، ورفيقة العمر حتويه في عينيها
الكسيرتين، والجرح ينزف في داخله ألماً مأساوياً.

همس، فبدا الصوت حشرجة مفعجة:

- قطعوا الزيتون.. الزيتون اغتيلت..

قال أحدهم:

- لا يأس من رحمة الله..

قال ثان:

- خل بأخلاق المؤمن..

قال ثالث:

- تذرع بالصبر..

قال رابع:

- إن الله يختبر إيمانك..

قوة خارقة تفجرت في كيانه، صرخ فيهم:

- كفى... كفى..!

صمتوا جميعاً، نهض واقفاً وفي عينيه بريق، حاولوا أن يقعدوه،
تخلص منهم بقوة، انطلق إلى الزيتون الممدة على التراب قتيلة، قبل
بشفتين عاشقتين وريقاتها وغصونها، ساقها، أيدي الرجال تشده إلى
الخلف ويستقيم واقفاً يهمس أحد الرجال لآخر:

- جنّ الرجل، لا حول ولا قوة إلا بالله.

يتفحص الحاج مبروك عيون الرجال، يشتد ذلك البريق في عينيه،
يقول:

- انصتوا.. من أحنى فعلاً.. من تألم لأجلى حقيقة.. فليساعدنى.

تداخلت أصواتهم بحبه في هدير أضواء ملامح وجهه بالأمل:

- من أجلك سنفعل ما نريد.

قال:

- فليحضر كل منكم ما عنده.. معول.. رفش.. أي شيء.. الزيتونة
لن تموت.

وخت لفتح يوم صار قائظاً من أيام مارس تناوب الرجال العمل، فريق
يحفر الأرض مهيناً الموقع الجديد للزيتونة، فريق ينبش الأرض بدقة خبيرة
حتى لا تتأذى جذور الزيتون أو يعوق استخلاص القرمة من الأرض عائق،
والأزناد السمراء القوية تنضح عرفاً، تتدفق جهداً وحيوية، بيدين هرمتين
بسهم الحاج مبروك مع الرجال في صنع الحياة حيناً، يتابع بعينين جدلتين
معجزة بعث الحياة في الزيتون القتيلة حيناً آخر، ورفيقة العمر تناول
الرجال بين الحين والحين أكواب الشاي فيحتسونها في سعادة.

استخلصت القرمة بمهارة من الأرض، حملت محوطة بالحب إلى
الموقع الجديد.

عُرسّت دون أن يتأذى منها جذر، عُطيت بالتراب في رفق، سُقيت،

تصافحت العيون فى مودة، اغروقت عيني الحاج مبروك بالدموع فيما تراءت له الزيتون تضرب بجذورها فى أعماق الأرض، تمتد بفروعها الخضراء إلى أفاق بعيدة.. فتعطي وتعطي وتغرق فى العطاء فيما تتنفس المزرعة السكينة و الأمان، فتعود حمامات المزرعة والدجاجات إلى نبش الأرض فى طمأنينة بحثاً عن الغذاء، وتتشاغل الشياه والأبقار بالرعي والاجترار، ويربض الكلب فى المزرعة حارساً لا تخور له قوى، ويدق الجواد الأرض جذلاً مزهواً بالحاج مبروك الذى استحق فعلاً أن يكون فارسه..!

obeikandi.com

الجرذ

القرية كانت وادعة، الحياة رتيبة نمطية تبدأ بعد شروق شمس اليوم، موظفون صغار ينوعون بالتثاؤب ثقلى يجرون الخطأ صوب مكاتبهم، صغار التجار بعيون ذكية متلصصة تبحث عن صفقة، تلاميذ بحقائب مدرسية يتقافزون متفائلين فى سباق مع دقات جرس المدرسة وخية العلم.

الشارع الكبير المترب يشق القرية إلى نصفين وتصطف على جانبيه محال تجارية متواضعة وبيوت سكنية غير متجانسة، بينما يبدو مقهى القرية معلماً فى طور النمو يلجأ إليه مواطنو القرية للعب الورق متحلقين على الكراسى الخشبية العتيقة حول طاولة أو أكثر وفي اللبالي القمرية للسهر واحتساء الشاي والحديث فى كل شيء بهيج ذي علاقة بالصبايا وربما شؤون القرية..

يحدث أحياناً أن يضج الشارع الكبير المترب بالمرح عندما يتصايح التلاميذ عائدين من المدرسة، متبادلين فى براءة المزاح متقاذفين كرة قماشية، لكن الشارع يميل عموماً شأن القرية دائماً إلى السكون

والدعة. بل إن الصمت المطبق قد يجثم على القرية تماماً في أيام الصيف المنتهية شديدة الحرارة إذ يختفى مواطنو القرية في بيوتهم ودكاكينهم فمياه البئر الوحيدة في القرية شحيحة، ولا يجوز أن تستنزف في ترطيب الشوارع المترب أو المبالغة في الاغتسال وغير ذلك.

«فقى» القرية كان قد حدث إليهم مراراً:

- الماء هو الحياة.. حرصكم على الماء يعنى حرصكم على حياتكم.
- هذه من غير فقى!!

هكذا كان تعليق مواطني القرية على قول "الفقى" في غيابه فهم لا يجراؤن على القول في وجوده ذلك لأن الرجل يحظى منهم بكل التقدير والإكبار والحاجة إلى تقنين استهلاك الماء قرار جماعى، ولا يضيف إليه قول الفقى أكثر من البركة شيئاً.

يحدث أحياناً أن يخرق نفرٌ من مواطني القرية القرار فيغترف من البئر قليلاً من الماء يرش به الشوارع الكبير المترب في الأيام القائظة ترطيباً للأجواء وتسكيناً للغبار وترويحاً عن أولئك الذين يلجأون إلى مقهى القرية مع غروب الشمس بعد يوم حار طويل، فيطال رذاذ الماء "صابر" تذروه الرياح نادراً ويذري عمداً غالباً من مازح شاء أن يوقظ «صابر» النائم على الرصيف متوسداً ذراعه مستغرماً عالمه لوحده.

يُعرف «صابر» في القرية بأنه مواطن أصيل أباً عن جد. ذلك لأن أسرته عريقة توارثت الحياة في القرية على مدى سنوات وتعمت بمردود عقارات وجارة واسعة وكان من أفراد أسرته وجهاء أعيان. لكن الزمن أتى على

كل شيء إلا "صابر" الذي يمتاز بقوة عضلية تجعله موضع اعتبار من لا يعتبر أصالة الرجل أو يحاول أن يستخف به، أيضاً قوة "صابر" العضليةمكنه من العمل عتالاً يلجأ إليه أصحاب الدكاكين مقابل أجر بسيط ينفقه في يومه دون اكتراث برزق اليوم التالي.

عيب "صابر" أن الله حباه بنعمة "الصم"، فالرجل أصم لا يسمع الأمر الذي عرّضه لكثير من الحوادث التي كادت أن تفقده حياته فلا يأبه. حتى اعتقد مواطنو القرية أن الحياة والموت عند "صابر" سيان، ولعل هذا ما حدث تحديداً عندما انطلق البرّاح ذلك اليوم في الشارع الكبير المترب معلناً في صوت متهدج عن الغول الذي اغتصب البئر محذراً كل مواطني القرية من الخطر الساكن في عمق الماء.

- لا تقتربوا من البئر!!

ساد الهرج الشارع الكبير المترب. رجال ونساء وأطفال. عيون سكنها الذعر شفاةً تيبست، وجوهٌ كلحت. سيقان خارت، الحزن أطبق على كل مواطني القرية، فالخوف من الغول يرهّب أشجع الفتيان، ويحول دونهم والبئر نبع الحياة في القرية الوادعة.

رغم أن اليوم كان قائظاً إلا أن "صابر" كان مستغرقاً في نوم عميق على الرصيف متوسداً ذراعه غائباً تماماً عن كل شيء؛ نداء البرّاح. ضجيج الرجال والنساء والأطفال، التحذيرات المتصاعدة بالابتعاد عن البئر، لذا، فهو لم يرهبه الخوف ولم يعتر وجدانه الحزن، فشيء ما يقال همساً وجهرًا لم يسمعه.

قال أحدهم:

- رأيت الجبل من البئر يعلو ويهبط !!

- قال آخر:

- رأيت الدلو جافاً يخرج من عمق البئر دون ورد !!

- أضاف مذعوراً:

- بل رأيت أن يداً سوداء طويلة قبيحة تسحب الدلو بشدة إلى داخل البئر!

- قال البراح:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إنني أخشى أن يكون الغول قد دق عنق غافل جاء برد البئر عطشاً ليرتوي !!

- صدح صوت جهوري تعوّد مواطنو القرية سماعه:

- السلام عليكم.

- رد مواطنو القرية:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته!

كان ” الفقى ” قد حضر فانتعش الأمل، وتراجع الخوف وتبدد الحزن وتعلقت العيون بـ «الفقى» تنصت وقد ساد الصمت المكان.

قال ” الفقى ” بصوت عال:

- لا تخافوا... يحدث أحياناً أن يسكن غول بئراً أو يسكن نفر من الجن بيتاً.. الشياطين أيضاً تفعل ذات الشيء.

حوقل مواطنو القرية وبسلموا واستعاذوا بالله من شر الشيطان الرجيم. بدا أن الأمل قد تقهقر لاح الخوف في العيون. قد يطبق الحزن مجدداً على مواطني القرية. فالخوف يغتال الأمل وينبت الحزن.

استطرد ” الفقى ” بصوت قوى:

- الأمر لا يخيف.. إن الله لطيفٌ بعباده..

صرخ أحد الفتيان:

- كفانا مواعظ.. ما العمل؟!!

استهجن مواطنو القرية اعتراض الفتى حديث «الفقى». رغم ما لقيه من استحسان غير معلن فاقتاده أقرانه بعيداً عن الفقى الذى أضاف غاضباً:

- إن المعمول لوجه الله.. منذ سمعت بأمر الغول اعتكفت وتمكنت بعد أن قرأت وقرأت وقرأت من إعداد هذا الحجاب!!

أخرج «الفقى» ورقة مطوية بدا على البائن منها رسوم وحروف زعفرانية صفراء شخضت إليها كل العيون. فلوح بها مغمضاً عينيه ليكتسح الخوف حتى الفتيان.

قال ” الفقى ”:

- هذا الحجاب سيحرق الغول. فلبأخذه أحدكم ويرمى به في فعر البئر.

وجم مواطنو القرية.. إن الحجاب قد يكون ذا جدوى وقد لا يكون..

أيضاً قد يكلف الفاعل حياته.. إن الأمر يتطلب الفداء.

قال رجل مخاطباً ” الفقى »:

- حسنا فعلت يا سيدى.. هيا ارمو أنت في قعر البئر.. أحرق الغول...
توكل.. فأنت الأقدر والأعلم والأجدر !!

فوجئ الفقى بالافتراح الذى قوبل بالاستحسان من مواطنى القرية،
لكنه حُصن بالصمت والاستغراق في التفكير ثم نطق:
- هذا غير ممكن.. إن الأسياد يرفضون.. شخص آخر يجب أن يقوم
بالعمل.

استيقظ « صابر » الغائب عما عن الإنصات، فشمس اليوم القائظ
لفحت جسده وببست شفتيه عطشاً وأصاب حلقه بحرقه موجعة،
لكن الفضول أدركه عندما رأى مواطنى القرية يتحلقون حول ” الفقى
” حينها قبض على عصاه ونهض فاندس بين مواطنيه محاولاً أن
يستجلى بعينه ما يحدث إلا أن المحاولة خابت . فالقول بالغول بطرق
أذنيه شأن الآخرين لكن الصمم يحول بينه وبين فهم القول.

تأكد ” صابر ” أنّ ثمة أمراً خطيراً دعا إلى تجمع غير مسبوق، وإلى
حضور ” الفقى ” وإلى ما تضحج به القرية من لغط وصراخ ونقاش
وهمس يتناهي إليه، من حيث تكومت نساء القرية على الأرض بينما
صباياها وقوفاً ينصتن، إلا أن العطش قاتل وشفتاه تيبستا أكثر، حرقه
حلقه تشتد ووهج الشمس يلفح جسده، واليوم القائظ يستوجب
المجاهة.

مضى قابضاً على عصاه صوب البئر وعندما فطن مواطنو القرية إلى أن «صابر» قد توجه صوب البئر تعالت صرخاتهم يحذرونه:

- الغول يا «صابر»... احذريا «صابر» !!

مواطنون آخرون صمتوا، لم يحذروا «صابر» ربما فكروا باختبار ما يعلن عنه البراح، ربما تهادوا في الإثم فشأؤوا أن يجربوا صدق ما ادعاه «الفقى» «صابر» ربما هان عليهم «صابر» فتركوه يهرع إلى حتفه ليدق الغول عنقه. «صابر» لم يعبأ، مضى نحو البئر بخطوات واثقة وعصاه غليظة، اقترب أكثر، اقترح «الفقى» أن يتناول أحد الفتیان الحجاب ويلحق بـ «صابر» فيعطيه إياه ليحرق به الغول، لم يلاق اقتراح «الفقى» «جواباً». ذلك لأن الأمر يتطلب نصف تضحية على الأقل أي نصف ميتة ربما.

حفظت العيون تراقب في خوف «صابر» وقد قبضت يسراه على عصاه ويمناه على الجبل حركه بقوة لإنزال الدلو على قاع البئر لكنه ما لبث حتى نزع يده عن الجبل وشد قامته منتصباً يقهقه وقد هوى بعصاه ضارياً في البئر بعنف.

صرخ مواطنو القرية بينما كان «الفقى» مشدوهاً يتابع بعينين بدنا علميتين ذكيتين:

- مجنون.. أهبل.. «صابر» يقا تل الغول.. الغول سيدق عنقه !!

لم يعبأ «صابر» استرد عصاه، ضربة واحدة شديدة تكفي، وضع عصاه جانباً، اتكأ على البر قليلاً، انتصب واقفاً وقد أمسك بشيء، رماه متأففاً بحذاء البئر، أمسك بكلتا يديه الجبل، ملأ الدلو بالماء، أغدق منه

على شفثيه ورأسه وجسده توضاً، تطهر، التفت فبصقَ على الشيء
الملقى إلى جوار البئر، التقط عصاه وحرك نحو مواطنيه، تدفق مواطنو
القرية صوب البئر بقوة الفضول الدافق متقدمين ” الفقى ” المذهول ،
ليفاجأوا بجرذ كبير في حجم أرنب بري مقتولا مكسواً بدم أسود مرمياً
بحداء البئر صرخوا جماعة:

- كذب البزاح.. لم يكن غولاً.. لم يكن غولاً على الإطلاق.. كان مجرد
جرذ !!

عرس ليلي

كانَ قصير القامة، متينَ البدن، جاد التقاطيع، ذا عينين ذكيتين، يحدث أحياناً أن تخال ملامح وجهه تشرق بابتسامةٍ، يتحدث قليلاً، ينصت كثيراً، يقاطعك إن أنت استرسلت في حديث غير ذي معنى:

- المفيد؟!

كان حيويًا مثابراً دقيقا حريصا على لقيام بتمريناته الرياضية في مواعيد ثابتة محددة، الأمر الذي قد لا يتوافق وسنوات عمره الستين. عندما تهاتفه فتخبيره إنك ترغب في زيارته يجيئك رده قويا حاسماً:

- متى جيء؟ .. متى تغادر؟!

أخبرته ذات مرة أن تحديد مدة الزيارة لا يروق زائريه ثم إنه لا يبدو لائقا، اعترض بشدة، فالوقت عُمُرٌ والعمرُ يجب أن يستثمر حتى آخر لحظة فيما يفيد.

كان يعمل محاسباً، وعندما تقودك صداقتك المقننة به إلى الانزواء في ركن مكتبه انتظارا، تكاد تخاله إحدى آلات المكتب، حاسبة، كاتبة، رقماً صعباً غير ذي جذر.

عيناه الذكيتان تبدوان في الغالب زجاجيتين، لا يمكن أن تخرقا إلى
جوانبته، تقاومان بشراسة إن أنت حاولت النفاذ إلى الإنسان فيه، ثم
بصرفانك بدقة شديدة ولباقة محسوبة صوب أمر آخر.

ذات يوم فاجأني:

- ليلي !!

نفث دخان لفافته وعيناه شاخصتان إلى سقف المكتب، إن بدنا
مصوبتين نحوى، ملامح وجهه جامدة باستثناء صدغيه اللذين انتظما
في حركة تنبيه عن توتره.

تساءلت:

- ليلي؟!

- تأوه:

- ليلي !!

وبدت ليلي كما تبدو دوماً في خيالي، ليست كما البنات، فليلى فتاة
غير الفتيات، ليلي وجود عبق بكل ألوان العطر ملائكي، شفاف، هي،
ذات العشرين بلامح طفلة، تنصت إليك تبدو كما لو كانت تصلى،
تحدث فتهمس حتى إنك تقترب من الشجر الكرزي لتلتقط الكلمات،
فيغشاك خدر لذيد، تلجأ للعينين الحالمين، تستقر في الأعماق، تنتفض
فيك رعشة الفرح فتسكن كل الأمواج، يخفت الهدير، يركع البحر
صاغراً، تصفو السماء، تتلألأ كل النجوم، تضاء كل الآفاق، يبدو الكون
رحباً، يمتزج الفرح بالمرح، خلو كل الأيام.

تساءلت مرة أخرى:

- ليلي !! ماذا حدث؟!

أجاب:

- عادنى عرس ليلي..

ولم يكمل.

عندما ترحل بعينيك الشرهتين عبر تضاريس القوام الطري الدقيق يختال في الثوب الأبيض محمولاً على قدمين صغيرتين لا يكادان يلامسان الأرض. يغشاك خفر العذارى ليلة عرس ويعاودك حلمٌ لذيد فتغمض عينيك مستسلماً للفرح حتى تفيق على زغاريد الأبيكار في توق بهيج إلى الحب والنماء.

ليلى كانت حبه كثيراً، هو كان يحبها أكثر. لم يحدث أن أخبرنى. لكنه كان يفعل، فالبيت عنده ليلي، البنات الأخريات أصغر من أن يدركن. والأم غائبة مغيبة، والبيت الكبير لولا ليلي بارد صامت مغمور بالوحشة والكآبة تطبق على أركانه ظلال رهبة مقبلة.

عندما كان يدعونى إلى البيت أدرك أن وجهها الطفولى الوديع يضيء كل أركانه المعتمة. القوام الرشيق يتهادى في عفوية البكر وحيوية العشرين. وأن شذاها سيعبق عطراً فواحاً فيغمر كل الأنحاء وأن ليلي ستقوم على خدمتنا في حبّ ينهار إزاء ليونته أشد الرجال تمنعاً ووقاراً.

كان يقول:

- هيا بنا إلى ليلي !

نادرا ما يقول:

- هيا بنا إلى البيت.

وهذه تعنى أنّ ليلي غائبة.

زرعت عيني في عينيه، عيناه كانتا عينين بشريتين تفيضان دموعاً وضعفاً وحرزناً، يطبق جفنيه فتنساب الدموع على خديه براحة يمناه يزيحها، أنفذ عبر عينيه المستسلمتين إلى الإنسان فيه، تبدو جوانيته جليةً غير مغلفة بالفطنة والدقة والذكاء الحذر.

بدا متحفزاً للحديث:

- تلك الليلة لا يمكن أن تمحي من ذاكرتي بكل تفاصيلها الصغيرة . كانت كما لو كانت ليلة القدر، كنت فرحاً لكنه الفرح المشوب بالحزن. عرس ليلي كان حلماً رائعاً وكان أيضاً حدثاً جليلاً، فليلي هي البكر، هي أول من ناداني ”بابا“ كانت تنام في حضني، تتغذى من يدي وأرقب نموها يوماً بيوم. تابعت تفوق ليلي في كل مراحل التعليم، هي صديقتي فلا تخفي عني شيئاً، كانت هي وأنا نناقش كل الأمور، نتسامر أذاعبها، تمازحني. لكل هذا كان عرس ليلي حدثاً جليلاً لكنه أيضاً كان حلم حياتي.

ليلة زفاف ليلي حاصرته أبواق السيارات المزدانة بالشرائط و”البالونات” الملونة، جاءوا يزفون ليلي، يأخذون ليلي إلى قاعة فندق.

إلى حفل صاحب ثم إلى بيت آخر إلى رجل آخر. إلى حياة أخرى.
زفت ليلي، تقاصت الزغاريد والمزامير والضجيج، قبعك وحيداً و أطبق
الصمت على كل أركان البيت، تفحصت عيناي كل الأمكنة، كل ركن
يروى حكاية رائعة، كل زاوية تتحدث عن ذكرى جميلة !!

صمت...!

كان الرجل ينزف ألماً، كان يتضور حزنًا، أشفقت عليه، شئت أن أنتزع
من الحالة، قلت:

- وأم ليلي.

جحظت عيناه، زفر زفرةً تقذف لهباً، جاءت عفويتي طعنة حادة في
جرح غائر، تملمت كمن يعتذر دون أن أنطق بكلمة.

استطرد:

- تلك الليلة كانت ليلة قاسية، ليس لي إلاك عونًا، رفعت عيني إليه
في عليائه ألود به، كانت السماء ملبدةً، ظلام الليل دامس، النجوم
لا تتلألأ فيما كان القمر يبكي، لكنني ما لبثت حتى أغفيت
مستسلماً للنوم شأن طفل ولم أعد أذكر كم استغرقت إغفائي
إلا أنه عندما أيقظني الضجيج كانت الساعة قد بلغت الثالثة
صباحاً، وكان القادم ليلي متوجة بثوب الزفاف الأبيض مرفوفة
بالرجل الآخر محاطة بفتيات في عمر الزهور وصبايا فرحات ودفوف
وأغان وزغاريد وعطور وحبور وفرح.

انتزعت ليلي ذراعها من ذراع الرجل الآخر، وأقدمت طفلفتى الرائعة

تلقي برأسها الصغير على صدري. تحيط براحتيها الفواحتين وجهي،
تقبلني وتبكي:

- لن يكون فرحى ما لم يكن فرحك.

تماسكت، مددت يدي فجذبت الرجل الآخر إلى صدري، احتضنتهما،
اخترق صوتي جهورياً قوياً حاداً ضجيج الفتيات وزغاريد الصبايا ودقات
الدفوف، فجاب كل أركان البيت مدوياً:

- هو فرحى.. هو فرحك.. هو فرحه..!

رفعت عيني إلى السماء فبدت صافية متألقة، والنجوم تتلألأ والقمر
يكفكف دموع الفرح غامراً كل الأمكنة بأضوائه الفضية الوضاعة. والله
في عليائه يبارك دون شك عرس ليلي.

السيرة ذاتية

محمد علي الشويهي

- وُلِدَ في مدينة بنغازي في ٢٣-٤-١٩٤٢ م
- حائز على إجازة - ليسانس - في الآداب من جامع بنغازي.
- صحفي وكاتب قصة قصيرة، صدرت له مجموعات قصصية في عدة طبعات:
- أحزان اليوم الواحد: أربع طبعات
- أقوال شاهديان: طبعتان
- صرخات في زمن الصمت: نصوص أدبية
- كحل العين: طبعة واحدة
- السوق القبلي: قيد النشر
- حائز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب - القصة القصيرة.
- بدأ العمل الصحفي محرراً متفرغاً في صحيفة الحقيقة الليبية الواسعة الانتشار في أواخر عام ١٩٦٨ م.
- ترأس تحرير عدة صحف يومية - الجهاد + الشورى - وشهرية ثقافية - الثقافة العربية - وأسبوعية جامعة - الموقف العربي - نيقوسيا.
- عضو مؤسس رابطة الصحفيين الليبيين.
- عضو مؤسس رابطة الكتاب والأدباء الليبيين.

obeikandi.com

المحتوى

5.....	أحزانُ اليوم الواحد.....
17.....	مريومة تغمز الحصان.....
23.....	اعترافات جرئية.....
31.....	شحنات الكراهية.....
41.....	أقوالُ شاهد عيان.....
49.....	دموع طفل لا يعرفُ الموت.....
55.....	زغاريد الملائكة.....
63.....	بندول الزمن.....
69.....	الموجة والرحيل.....
77.....	كحل العين.....
87.....	الفراشة.....
95.....	زيارة ولد الشيخ.....
101.....	الزيتونة.....
111.....	الجرذ.....
119.....	عرس ليلي.....
125.....	السيرة ذاتية.....

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496